

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة وهران 1 - أحمد بن بلة -

قسم التاريخ وعلم الآثار

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث المعاصر

الصراع الفرنسي الإنجليزي في الإيالة الجزائرية 1519م-1830م

إشراف الأستاذ :

إعداد الطالبة :

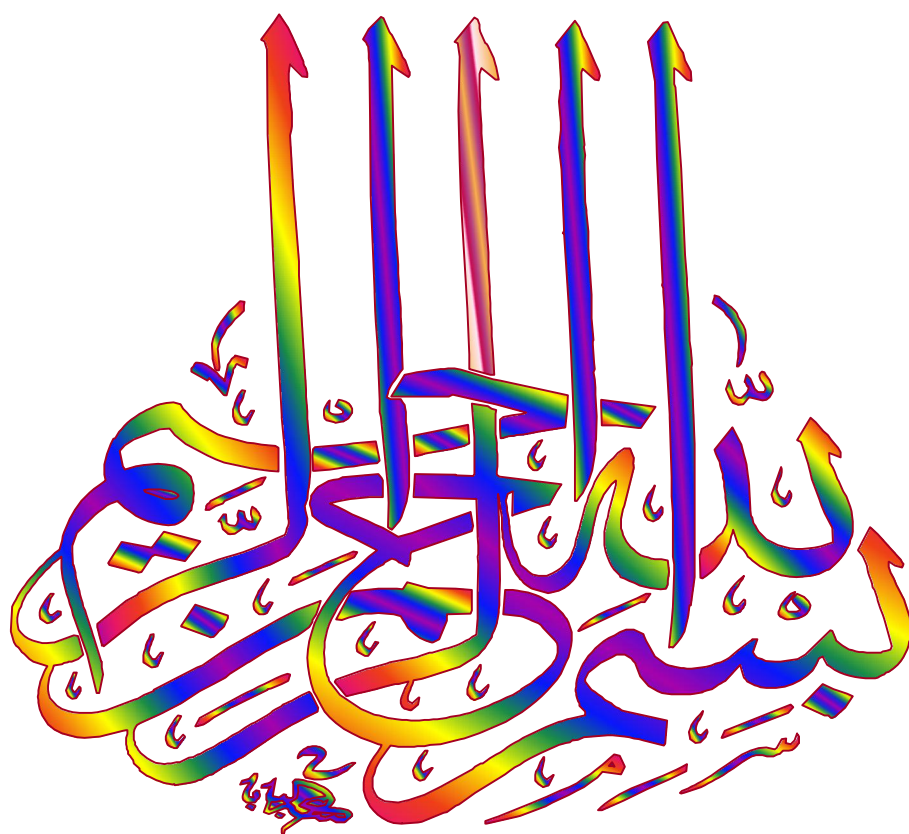
د. أحمد رنيمة

- رشيدة بوعقلين

أعضاء لجنة المناقشة:

- أ.د. عابد سلطنة.....جامعة وهران 1.....رئيسا
- د. أحمد رنيمة.....جامعة وهران 1.....مشرفا ومقرّرا
- د. حميد آيت حيرش.....جامعة وهران 1.....مناقشا
- د. بن عمر حمدادو.....جامعة وهران 1.....مناقشا
- أ.د. محمد دادة.....جامعة وهران 1.....مناقشا

السنة الجامعية: 2018-2019



شكر وتقدير

أقدم شكري الخالص لكل من شجّعني على إتمام هذا
العمل المتواضع رغم ما صادفته من مشاكل، وأُخِصَّ
شكري للمشرف الدكتور "أحمد رنيمة" وطيبته وكذلك رئيس
المشروع الدكتور "محمد دادة".

شكر وتقدير لأعضاء لجنة المناقشة لسعة خاطرهم

ومجهوداتهم.

مقدمة

تتبع أهمية دراستنا من طبيعة وأهمية الأحداث التي عرفها التاريخ في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، فتلك الفترة تعدّ بمثابة النفق أو الجسر إن كان وهمي لعدم إثبات الزمن بالقياس الصحيح للتاريخ الصحيح الذي عرفته أوروبا وخروجها من العصور المظلمة إلى عالم النهضة لتكون بذلك المرجع لقياس زمن تداول الحضارات، ولتكون حداثتها على أنقاض الحضارات السابقة. ففي تلك الفترة من تاريخ الأمم، كانت السياسة المتبعة هي عبارة عن تفكر الأمم في معرفة الوسائط لامتلاك بلاد الغير خاصة الضعفاء والجهلاء.

وقد كانت الجزائر الحالية تحت السلطة الحفصية جزئيا وتحت الحكم الزياني في معظمها من بين هذه الدول الضعيفة، لما عرفته من شتات الرأي وانقسام الوحدة. وإن تصادف الأمر مع بروز الدولة العثمانية وتسلمها مقاليد الزعامة للخلافة الإسلامية، لتُظِلَّ على كل الأقاليم العربية والإسلامية وتدخل في أحوازها أغلب الدول المسيحية لأوروبا الشرقية أيضا.

لتأتي الدائرة على الجزائر معلنة ارتباطها بالدولة الإسلامية القوية آنذاك، كيف لا، وقد سبقتها الأماكن المقدسة بذلك، لتصبح الجزائر ولاية عثمانية وأحد الأطراف المهمة في الصراع الإقليمي والدولي الدائر في حوض البحر الأبيض المتوسط، فجعلها تدخل التاريخ من أوسع أبوابه. فقد كانت الحلقة التي ربطت أوروبا وشمال إفريقيا والدولة العثمانية، فجعلها في دائرة اهتمام الدول المسيحية، وتسابقهم من أجل إبرام الصفقات والمعاهدات معها. ومن أجل مقارنة الأحداث وتحليل جوهر الصراع، في تلك الفترة فضلا عن كونه صراعا دينيا مكملًا لمخطط صليبي القاضي باستئصال الإسلام من شمال إفريقيا.

كما كان صراعا اقتصاديا وتجاريا فأحدث تنافسا كبيرا وخطيرا بين القوى الأوروبية الصاعدة بعد ضعف القوى الإسبانية البابوية فحاولت كل من فرنسا وبريطانيا التقرب من الجزائر ثم الضغن بالهيمنة عليها.

فهذا الموضوع هو دراسة تاريخية للوقائع التي شهدها تاريخ الخلافة العثمانية وما شهدته من أحداث وتداوياتها السياسية والعسكرية، الدبلوماسية، ألقت بظلالها على كل الأطراف المتنازعة في المنطقة. ولعل الأثر الكبير تلقته الجزائر العثمانية باعتبارها أهم الولايات في شمال إفريقيا، وتداول عليها أهم الشخصيات الحاكمة في التاريخ والتي أثرت في مجريات الأحداث سواء بالإيجاب أو السلب. ولعل أهم إشكالية طرحها عن حقيقة العلاقات الأوربية التي انعكست على الجزائر لتتحول إلى صراع سياسي عسكري، ومع تبدل وتغير الأحداث وكسوف دول قوية كإسبانيا وظهور دول حديثة وقوية في المنطقة، لتنتهج سياسة خارجية ذات دلالات سلمية في شكلها واحتكارية استعمارية في الأفق.

كيف تمكنت كل من فرنسا وبريطانيا من التقرب من الجزائر العثمانية ثم التدخل في شؤونها شيئا فشيئا إلى غاية وقوع الاحتلال؟

ولعل المنهج المناسب لدراسة ظاهرة الصراع السياسي بين الدول هو المنهج التاريخي الذي يعتمد على الوصف والتحليل والنقد نسبيا، مع استعمال نظام APA للتمهيش الذي يضع المصدر مباشرة بعد نهاية فقرة الاستشهاد.

جاء الفصل الأول متضمن موجز لأهم الأوضاع التي شهدتها الجزائر سواء الاقتصادية أو الثقافية منها، واستعراض الأوضاع التي عاشتها كل الدول الأوربية فرنسا وإنجلترا في تلك الفترة مع بروز الإمبراطورية العثمانية لتشكل القطب القوي الثاني أمام الخلافة الإسبانية حامية المسيحية.

ومع تطوّر الأحداث وعدم استقرار الأمور وما عرفته من مدّ وجزر في العلاقات الدولية بين كل الأطراف المتنازعة، وغلبة المصالح الشخصية على العامة، وتقلب الأوضاع من خلال المؤامرات التي كانت تُحاك في الخفاء ضد بعضهم البعض، وهذه الحزازات ساهمت في شتات الرأي وعليه المصلحة ليؤدي إلى بروز نوع من الانحياز للأقوى رغم اختلاف العقيدة وتجاوز النزعة الصليبية الانتقامية، من خلال التسابق نحو البلاط العثماني لإبرام المعاهدات ونيل الرضى وتكون بذلك نقطة انطلاق العلاقات الدولية مع الباب العالي وبداية سلسلة التحالفات وباعتبار الجزائر إيالة عثمانية قوية

تسارعت نحوها الصفقات والمعاهدات والامتيازات التجارية لتدخل بذلك معترك الطرق، لتكون هذه أحداث الفصل الثاني.

على غرار ذلك نستعرض في الفصل الثاني أبرز الخلفيات الحقيقية وراء هذا التحرك الدولي بين جميع الأطراف بالإضافة إلى بعض الشخصيات التي كان لها الدور الهام في مجرى الأحداث وإبراز ماهية التقارب الفرنسي الإنجليزي باعتبارهم أقوى دولتين حديثتين في ظل أفول الإمبراطورية الإسبانية وانكماش سياستها التوسيعية وانعكاساتها في المنطقة. بالإضافة إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت محطة اهتمام كل من الطرفين ومساعدتهم في تحقيق الغلبة في حوض البحر الأبيض المتوسط الذي شكل الهاجس لكليهما.

لهذا الغرض تركز عملنا على المصادر خاصة وأغلبها الأجنبية المزامنة للأحداث والتي تعرّضت لكل هذه التفاصيل وإعطائها الأهمية للجزائر لكثرة الأحداث المتداولة عليها وعلى سبيل الذكر مصادر غرامون، بلنت، الأب دان وإن كانوا متحيزين وناقمين على المسلمين، إضافة إلى المصادر الفرنسية وإن كانت متأخرة في الزمن كالزهار وحمدان خوجة.

إلى جانب المراجع التي أفادت عملنا كتاب لجمال فنان "المعاهدات"، وأيضا رسالة "رحمونة بليل" التي استندت على أرشيف الغرفة التجارية بمرسيليا وأيضا الرسائل القنصلية الهامة التي كان لها الفضل في معرفة التفاصيل بين الجزائر العثمانية والدول الأوروبية.

الفصل الأول: أوضاع حوض المتوسط

زمن ظهور القوى العثمانية

1- التفوق العثماني في حوض المتوسط وإعلانهم حُماة المسلمين.

2- العثمانيون في الحوض الغربي للمتوسط.

3- الأوضاع العامة للجزائر زمن تقدّم العثمانيين.

- الجزائر قبل دخولها في الولايات العثمانية:

تداولت على الجزائر عدة حضارات، تركت كل واحدة بصمتها، وباعتبار آخر دولتين بارزتين في تاريخ الجزائر هم المرابطون فقد كان لهم النصيب في إعطاء قوة للجزائر لولا اجتياح القبائل العربية التي عملت على إضعاف هذه الدولة بسبب كثرة الهجمات، وانشغال المرابطون لما وراء جبل طارق.

"لم تتجاوز فتوحات المرابطون أكثر من طول خط الجزائر، لترجع فجأة على طريقها وتبدأ بالتوجه إلى إسبانيا وتتطور إلى الشمال، في 1086م كان سيد المغرب، ووصلته دعوى من مسلمي إسبانيا تتاجيه المساعدة ضدّ الملك ألفونسو السادس" (Carrette, 1853 : 404)

"لو أن مملكة المرابطون أخذت تقدمها من المغرب إلى الشرق، كان لا شكّ في أن قوتهم هذه كانت ستدحر فوراً من منافسهم الطامعين" (Carrette, 1853 : 404)

"أوائل القرن السابع إثر ثورة بني غانية، بقايا اللمتونين المرابطين، ومشائخهم الذين تسابقوا إلى وراثة الدولة المركزية" (الراشدي، 1973 : 13)

غير أن هذا الواقع لا ينفي بروز الجزائر رغم ذلك في خضمّ هذا التدهور السياسي وذلك في المجال البحري وتداول النشاطات البحرية عليها وما خصّه الموحدون لها فعند وصول:

"أمير الموحّدين إلى الجزائر بني مزغنة أمر بإنشاء أساطيل وأخذ في تجهيز العساكر إلى ميورقة وفتحها" (القيرواني، 1286: 116)

"كما أنها انتهجت سياسة رفع القدرات العسكرية الدفاعية للجهاد الإسلامي من خلال إنشائهم مدارس عسكرية لتخرج رجال السياسة وقادة الجيش والأسطول" (الهادي، القرقوتي، 2005:

(262

لقد كانت دولة الموحدين قوية جعلت من نفسها حامة الإسلام قبل أن تقوم قائمة للعثمانيين فقد نافست إسبانيا في عقر دارها ولم تقطع حاملاتها عليها.

"يرجع إليه الفضل في ترويض الهالين وتشجيعهم على الاستقرار في مناطق معينة، وتدعيم النفوذ العربي في الأندلس بفضل انتصار على ألفونسو الثاني ملك قشتالة في معركة أراكون. تمكنوا من توحيد المغرب العربي ورد الهجمات الصليبيين عن شمال إفريقيا وبسط النفوذ في الأندلس، وكانت دولة قوية من الناحية العسكرية وأسطولها يسيطر على البحر المتوسط وجبل طارق" (بوحوش، 1997: 41)

وكل هذه التجهيزات بدافع تكوين القاعدة الرئيسية لإعلان الجهاد ضد الروم من خلال تجنيد المتطوعين من كل القبائل وقد أصبحت فعلا القاعدة الجهادية التي كسرت أقوى إمبراطورية مسيحية. فهذه الهيبة كانت قبل ولوج العثمانيون إلى حوض المتوسط، فقد كانوا منشغلين بحروبهم الداخلية والخارجية ومن كانوا يجوبون البحار هم عبارة عن قراصنة وليسوا بجيش منظم عكس الجزائريين.

"وقد بلغت من سعة الرقعة والازدهار والسطوة مبلغا عظيما جعلها من أعظم الدول في التاريخ الإسلامي" (النجار، 1923:

(377

وبعد الانهزام الكبير الذي تلقاه الموحدون على يد الإسبان اللذين تعاونوا مع بقية المسيحيين، في معركة حصن العقاب، انتهت بذلك الانتصارات وعهد الفتوحات، لتتقسم الجزائر إلى عدة دويلات.

"بعد أن خسر محمد الناصر المعركة التي جرت في سفح جبال المودارال، وهي التي تُحي الكنيسة ذكرها كل سنة في السادس عشر من يوليو" (مارمول، 1984: 373)

بعد هذا التدهور العسكري والسياسي مع بروز عدة دويلات وملوك ضعف الرأي وطغت المصلحة على روح المقاومة والجهاد ضد الأعداء المسيحيين اللذين أخرجوهم من إسبانيا وبدعوا التخطيط في إقصاء المسلمين الإسبان وحتى في عقر ديارهم.

"لم يلق الإسبان مقاومة تذكر عند احتلالهم للشواطئ الجزائرية، بل الأذكي من ذلك أن بعض أمراء تلمسان من بني زيان تسابقوا للاتصال بهم وعرضوا عليهم خدماتهم" (الراشدي، 1973: 14)

وأصبحت الجزائر دويلات الغلبة للأقوى أو المدعم من طرف أمراء أو ملوك مسيحيين لتبرز فكرة استئصال الإسلام من شمال إفريقيا بعد توحيد إسبانيا.

"لكن الملكة إليزابيث توفيت في 1504م، فتوقفت الاعتداءات لهذا الهجوم الذي كان أعز أحلامها، وعندما فتحت وصيلتها وجد فيها إلحاح على وجوب مواصلة الغزو لشمال إفريقيا" (الميلي، 1964: 20)

حركة التصوف وأهميتها في تطور الفكر الجهادي لدى الجزائريين:

لكل عصر جذوره تمتد في أعماق العصر الذي سبقه، بمعنى أن التواجد العثماني لم يكن بمحض الصدفة أو عمل قرصنة، كما يُشاع له في كتب المستشرقين الناقمين على الإسلام وذلك بهدف إعطاء صبغة إجرامية غير شرعية لأعمالهم الجهادية وتخليص المضطهدين المسلمين من الاضطهاد الاسباني، والتصفية التي تعرضوا لها لاستئصال الإسلام من إسبانيا والعمل على حملهم في سفن وإيصالهم إلى شواطئ إفريقيا.

"إن الاضطهاد والتهجير القصري في حق الأندلسيين وملاحقتهم حتى الشريط الساحلي الإفريقي هو السبب الرئيسي في ظهور العثمانيون في المتوسط، بمعنى أن الجهاد هو علة وجوده" (عباد، 2007: 3)

سقوط دولة الموحدية أدى إلى ظهور إمارات متطاحنة فيما بينها، وكان من البديهي في مثل هذه الأوضاع، بروز فتن في غياب الأمن والاستقرار مع تفشي الرذيلة في ظل انتشار الجهل والخرافات وخروج الناس عن أمر الحاكم الغائب أو بمعنى أصح المنشغل.

"في ظل تسابق المشايخ إلى وراثة الدولة المركزية، فكان كل منهم يرى أنه الأحق بوراثة تعاليم الإمام المعصوم" (الراشدي، 1973: 13)

"غير أن هذا لم يمنع من ظهور رجال صالحين في كل المناطق خاصة الغربية منها المتاخمة للأندلس منهم الشيخ إبراهيم التازي" (بن عمار، 2001: 23)

"ومناقبه في الغرب وازدهاره واستقطاب الأعداد الوافدة من الأندلس، إلى جانب الشيخ الصالح الورتلاني في القرن 17م 1713-1718" (بوعزيز، 1995: 44)

"وهذا التواجد للعلماء عزّز من مهمة العثمانيون بالاستقرار واستمالة الجزائريين للجهاد ضدّ المسيحيين، فالطريقة البكداشية التي يتدينون بها لمرابطيهم بالولاء ويبركون بهم" (سيدهم، 2009: 19)

ساعدت في التقرب من أصحاب الطرق الصوفية ليقودوا الأهالي إلى فكرة الجهاد كما جاء في وصف Boyer.

"عندما وصل عروج إلى المغرب الأوسط، مفتاح البلاد، كان بيدي أصحاب الزوايا الذين يستحوذون على ثقة الشعب" (Boyer, 1966 : 16)

من خلال هذا الوصف نرى أن العثمانيين تجاوزوا مع رجال الدين لكسب ثقة الأهالي وكانت الورقة الضامنة لبقائهم، والتقرب من الحكام التي ما فتئوا أن أزاحهم بسهولة منتهزين فرصة التطاحن بين القبائل وضعف الرابطة بين الحاكم والمحكوم، لضعف الحاكم في ظل اضطهاد الأهالي وتدني المعيشة وحملات الصليبية ضدهم، في ظل خنوع المشايخ للمسيحيين والتغاضي عن الفوضى وانسياب الأمر لغير أهله.

"لقد كانت مهمة الجنود الأساسية في العهود الأولى من الحكم العثماني تتمثل في الدفاع عن البلاد بوزع ديني بحت، مما مكنهم من تحقيق عدة انتصارات والتصدي لجميع الغارات الخارجية" (شويتام، 2010: 35)

الأوضاع العامة للجزائر عند دخول العثمانيين:

الأوضاع الاقتصادية:

تتطرق كل البحوث إلى أوضاع الجزائر قبيل مجيء العثمانيين على أنها فسيفساء سياسية متطاحنة، غارقة في الفقر، غير أنها تجاهلت المكانة الاقتصادية العامة التي لعبتها الجزائر في خضم تلك الصراعات السياسية التي شهدتها حوض المتوسط.

"فقد كان ميناء الجزائر محميا جدا ويتوارد عليه بكثرة الملاحون من إفريقيا وإسبانيا إلى جانب التبادل عن طريق البحر مع الأجزاء الغربية من بلاد الإسلام" (سبنسر، 1980: 16)

وخاصة تلك الفترة التي حكمها الموحدون فقد وصلوا إلى قمة مجدهم وجعلوا من الجزائر محطة برية تجارية رغم الحملات التي كانوا يقومون بها على إسبانيا.

"تبنوا عملة نقدية دائرية حتى يتم تفريقها عن عملة المرابطين، ومن العلاقات الخارجية أعطى امتيازات للجنوبيين وإشراكهم مع البندقيين وأصحاب بروفانس لحمايتهم بموجب المعاهدات المنعقدة في 1153 و 1154 والتي تنص على أن التجارة بيدهم" (Mercier, 1868 : 105)

ومع قدوم المهجرين الأندلس من اليهود وعرب المسلمين ومساهماتهم في إنعاش التجارة من خلال:

"حذاقتهم والحرف التي عُرِفوا بها أهل الأندلس وخاصة اليهود وتوغلهم في المجال الاقتصادي وازدياد الثراء عبر العديد من الصفقات التجارية وكوسطاء" (بلبوري، 1988: 18)

"لتصبح الجزائر القاعدة التي اندمج فيها مسلمو الأندلس في بلاد المغرب" (بويابة، 2005: 190)

ولم يكن هذا التراجع الاقتصادي إلاّ بسبب سلسلة الحملات والنهب التي تعرضوا لها الأهالي والقصف المتكرر للمدينة من الحصن المقابل لها والذي كان السبب وراء انكماش اقتصادها بسبب تراجع التجارة البحرية.

"الحصن الذي سمي باسم البستيون بسبب القاعدة الصخرية التي تحمله هذه القلعة كانت موجهة لجعل الأهالي يظهر الاحترام، والوقاية من القرصنة وتأمين الدخل السنوي" (Berbrugger, 1860: 16)

وقد كانت المدينة في ما مضى مزدهرة بمينائها الذي كان له شأن في الحوض المتوسط:

"إذ كانت ترسو به السفن الإيطالية للتجارة باعتبار إيطاليا أهم المدن الساحلية التجارية الأوروبية المبادلة للجزائر" (أبي راس الناصر، 2008: 24)

وهذا الازدهار تفقر بعد توافد المضطهدين المسلمين إلى شواطئ إفريقيا، مما جعل الإسبان يطلقون حملات تطهيرية ضدهم واستئصالهم نهائيا خوفاً من انتقامهم:

"إن العرب والمسلمين لا يعتبرون خروجهم من الأندلس هزيمة نهائية، لقد أخفوا سلاحهم، ومعظم رؤسائهم تظاهروا فقط بالانهزام في انتظار الفرصة المؤتية لينقضوا على الأندلس مرة أخرى" (الميلي، 1964: 20)

كما عرفت العلاقات التجارية للقوى المسيحية مع الجزائر فتورا مع تداول الأحداث السياسية التي قسمت الجزائر إلى دويلات متطاحنة أثر في علاقاتها مع دول الجوار.

"سجل أواخر القرن الثالث عشر ميلادي انهيار العلاقات الجيدة للقوى المسيحية لحوض المتوسط مع مسلمي إفريقيا" (Mercier, 1868: 383)

وهذا الفتور في العلاقات انعكس على اقتصاد الجزائر وزاد من تراجع تجارتها الخارجية خاصة البحرية منها، أما في الجانب الداخلي متذبذب لانقسام القبائل بين العديد من الشيوخ.

"وكانت الأسلحة الإسبانية ترجح كفة الانتصار لكل طرف تريده هي في حرب ملوك القبائل، في نفس الوقت تقوم إسبانيا بحملاتها على الأراضي" (Tassy, 1724: 4)

إلى جانب وجود صخرة البستيون المحتلة من طرف الإسبان التي زادت من معاناة الأهالي وفقدهم وتعبر أهم الإنجازات التي قام بها الكاردينال خمينس في إطار الإجراءات التي قام بها للحد من هجومات المسلمين على شواطئ إسبانيا وما تكبده من خسائر.

"مارست هذه الأخيرة سياسة التطبيق والتفتيش على السفن التجارية التي تدخل الميناء" (فكاير، 2012: 134)

"وهذه القلعة التي بناها الإسبان تبعد ثلاثمائة متر عن المدينة الجزائر، وكان الغرض منها المراقبة وإنغاص عيش السكان بالمدينة" (Garrot, 1910: 349)

"لعب الكاردينال خمينس دور مهم في إسبانيا من خلال وضعه حد للسلب الذي قام به المركسيون والبربر، وذلك بحظر المدن الواقعة على الساحل الإفريقي وبناء حصون مقابل هذه المدن لتتحكم بهم" (Nettement, 1867 : 02)

"فكان احتلال وهران بعد احتلال مرسى الكبير، بجاية وبعد احتلال شواطئ الجزائر عزز البابا قرار 1492م بقرار آخر، أعلن فيه الحرب الصليبية على كل بلاد المغرب العربي سنة 1518" (الراشدي، سحنون، 1973: 11)

هذه الظروف كانت سببا في وقف الحال الاقتصادي للسكان لكثرة الحملات الإسبانية وانصراف الأهالي للمقاومة وهجر الأراضي والإنتاج الزراعي مما ساهم في تدهور المعيشة للسكان، وحتى قبل عام 1517م، فإن شمال إفريقية أصبح مسرحا للصراع الإسباني العثماني.

"إن ضعف السلالات الحاكمة في الشمال الإفريقي المرينيين-الحفصيين- الزيانيين دفع العثمانيين لرميهم جانبا، وسيطرتهم على المنطقة على أساس مواجهة الخطر الإسباني والبرتغالي" (حمداني، 2007: 6)

وعدم ترك الحوض المتوسط لهم لدرايتهم لأهمية الموقع وخاصة كان هو الدخل الأساسي البحري لهم، والتحكم في الموانئ باعتبارها الملاذ لسفنهم في حالة حرب أو سلم، وقد كانت فيما مضى محطات عبور لكل الأجناس.

أهم ما يميّز الدول الأوروبية في الفترة التي تزامنت وولوج العثمانيين إلى البحر المتوسط ترجع فكرة الحركات الاستكشافية التي خاضتها الدول الأوروبية إلى زمن ألكسندر المقدوني الذي أصبحت أعماله يُقتدى بها ومحل منافسة.

"ومنذ أن قام الإسكندر الأكبر بسوق لإغريق إلى حروب
توسعية التي امتدت من بريطانيا شمالا، غرب أوروبا
وحوض المتوسط" (بطريق، نوار، 1971: 45)

ومع سقوط غرناطة 1492م، واهتمام الإسبان بتوحيد أراضيهم وانتزاع ما تبقى
للمسلمين من أراضي لتطبيق الخناق عليهم، غير أنهم صنعوا لأنفسهم ما أنغص عيشهم،

"حتى في عقر ديارهم فقد كان من الطبيعي أن يرنوا
المركسيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق
لإنقاذهم" (زعتوت، 2011: 43)

غير أنها كانت استعمارية أكثر منها استكشافية. وهذا ما انتهجته الدول الأوروبية
بعد عصر النهضة لتستجمع قواها وتوجه نشاطها نحو التوسع الخارجي، وعلى غرار
الأحداث التي عرفها البحر الأبيض المتوسط من نشاط ملاحى وتجارى، كان أول وجهة
جذبت أنظار الأوروبيين إليه، ليستعد بذلك احتدام قوى مسيحية تركت بصمتها في
المنطقة، فقد كان عصر الإمبراطورية الإسبانية حافلا بالحروب من أبرزها:

"الحروب بين فرنسا وإسبانيا والتي اتخذت من إيطاليا مسرحا
لها ولذا عرفت بالحروب لإيطالية، وقد انتشرت المذاهب
الدينية الجديدة (البروتستانتية)" (الجمال، إبراهيم، 2000:
55)

بالإضافة إلى الأزمة الخطيرة التي عاشتها أوروبا وحربا طاحنة شاركت فيها كل
دول أوروبا الوسطى والغربية وحتى دول الشمال وبدأت هذه الحروب.

"في ألمانيا لأسباب دينية لتطرح مسائل أخرى علاوة على المسائل الألمانية الخاصة بالحرية الدينية والتنظيم السياسي للإمبراطورية، وتفوق فرنسا في غرب أوروبا صراعها مع فرعيها في كل من النمسا وإسبانيا" (يحي، 1999: 17)

ترتب عن هذه التطورات صراعات ومصادمات وحروب بين الكاثوليك والبروتستانت، فخاضت أوروبا غمار المعارك بسبب حركة الإصلاح الديني التي انعكست على الفكر الأوروبي.

"وهذه الوحدة السياسية أظهرت دول أوروبا الحديثة المستقلة، ذات الكيان الوطني الواضح في فرنسا، إنجلترا وإسبانيا وقويت سلطة ملوك هذه الدول فقاموا بتقوية جيوشهم وأساطيلهم واستخدموا البارود" (الجلال، 1981: 41)

"ليكون هذا الظهور ريتاج لحركة تحررية فكرية علمية" (الهيكلي، 2006: 8)

وهذا الفكر في التوسع سوف يكون سبب في بقائها وقوتها عكس الإمبراطورية العثمانية التي تلاشت أمام تعصبها في قبول الحركة العلمية إلى جانب انغماس حكامها في الخمول،

"ولم تتمكن من الصمود في ظل انحطاط مستوى السلاطين سوى أنها استغلت بنجاح التناقضات بين الدول الأوروبية لتكون شريكا مستقلا في العلاقات الدولية" (دولينا، 1999: 4)

وفي سياق دراستنا لأهم الأحداث التي عاشتها أوروبا في هذه الفترة المزامنة لظهور العثمانيين كقوة وخطر عليهم تنطرق إلى معركتين حاسمتين في تاريخ فرنسا والتي انعكست على مجرى الأحداث وعلى مستقبلها خاصة:

"موقعة مارجنانو 1515 Marignanoم، حيث أقدم فرنسوا على مغامرة في شجاعة وتصميم، فاخترق جبال الألب وانقض على أعدائه، وعليه تمت معاهدة تنص على عدم مشاركة السويسريين في حرب ضد فرنسا، وعقد مع البابا ليو العاشر أن تعيين رجال الدين من اختصاص الملك في فرنسا". (البطريق، النوار، 1981: 72)

"وكان البابا يساير فرنسا في سياستها التوسعية في إيطاليا حتى يضمن عن طريق ذلك الحصول على إحدى الإمارات، لكن تم عزل فرنسا سياسيا بعد تكوين الحلف المقدس ضد فرنسا". (جلال، 1981: 390)

ثم توالى وتيرة الأحداث في 1525م وانهزام فرنسا في بافيا بعد حصارها،

"انهزم فرنسوا في بافيا بعد حصاره من طرف الجيش الألماني ليسلم نفسه وأخذ أسيرا إلى إسبانيا وثم أجبره الإمبراطور الإسباني بتوقيع معاهدة مدريد 1526م". (البطريق، النوار، 1981: 74)

ثم ساد نوع من الهدوء النسبي بين الطرفين بعد توقيع المعاهدة بسبب أن فرنسوا الأول كان حذرا في تعامله مع إسبانيا، حيث أن هذه الأخيرة كانت تحيط بكل جهات الحدودية لفرنسا باعتبارها الأقوى والأوسع مما دفعه لتوقيع معاهدة صلح كامبري.

"في 1529م ليرضيه ويلتزم بما جاء في معاهدة مدريد". (بوعزيز، 1980: 41)

"في نفس الوقت التفتت فرنسا لأكبر قوة في المنطقة لحماية ظهرها وتوقع أول معاهدة مع الإمبراطورية العثمانية في المجال التجاري 1529م" (قنان، 1987: 35)

ليتم عزلها من طرف الحلف الصليبي، وذلك يتزامن مع أخطر مشكلة عرفتها أوروبا هو وصول خطر العثمانيين والذي شكّل هاجس لهم لولا تفرغ إسبانيا لهم وترك مشاكلها الداخلية.

"وكان أخطرها وصول الأتراك العثمانيين إلى الأراضي
المجرية واحتلال معظمها واستعدادهم بعد ذلك لمهاجمة
فيينا". (البطريق، النوار، 1981: 77)

الصراع الديني وانعكاسه على مجرى الأحداث:

إن نظرنا إلى أوضاع الدول الأوروبية وتقدّم العثمانيين نلاحظ أن نفوذهم إلى البحر الأبيض المتوسط وخاصة شمال إفريقيا بدأ بدافع القرصنة لإضعاف الدول الأوروبية وتقوية نفوذهم مستغلين الشقاق بين هذه الدول وحروبهم مع بعضهم.

"كان المسيحيون يؤمنون بضرورة القتال ضد الأتراك
(العثمانيين)، لكن عم الثقة فيما بينهم، جعلهم يتماطلون في
اتخاذ موقف موحد ونهج خطة واحدة" (مارمول، 1997:
504)

كما أن فرنسا تمسكت بحملها القديم بضم إيطاليا وسعت إلى ذلك بكل الطرق غير
أن الدول عارضت ذلك لعدة أسباب أهمها الخوف من توسعها أكثر.

كان فرنسوا الأول مشغولا بصراعه الدائر ضدّ الإمبراطور شارل الخامس وحروبه
الطاحنة في إيطاليا التي أدّت به كأسير في مدريد.

"ليتحول اهتمامه إلى داخل مملكته وقد اشتدّت حركة
الصراع (1515-1547م) الديني من الكاثوليكية
والبروتستنتية" (البطريق، النوار، 1981: 147)

"ظهر في الوسط الأوروبي مذهب جدير هو مبدأ التوازن
الدولي، ينص على أن لا يحدث تغير من شأنه أن يغلب

دولة على أخرى نتيجة الغزو أو التوسع وإن حدث توجب
على بقية الدول منع ذلك" (البطريق، نوار، 1971: 69)

غير أن الملك الفرنسي لم يخفي ارتياحه وتقبله إلى هذا التحول الديني الذي شغل
الدول الأخرى عنه وساهم من تخفيف الضغط عليه، لكنه مع امتداد الحركة وتزايد المد
البروتستانتي في فرنسا ومجاهرة اللوثرية الفرنسيين بأفكارهم المخالفة لمعتقدات الأغلبية
الساحقة.

"وتحول الملك فرنسوا الأول منذ 1528م لضرب الحركة
بمنتهى الشدة والعنف باعتبارها فرضتها السياسة الخارجية
بالدرجة الأولى فأعدم حرقاً بعض الدعاة، لتظهر شخصية
كالفن لتحقيق انتشار الحركة الدينية المسماة كالفينية".
(نعني، 1981: 66)

في خضم هذه الفتن الدينية التي قسمت ظهر الملوك مع تزايد وتيرة الدسائس بين
الدول الأوروبية، لجأ كل ملك إلى سياسة من أجل المحافظة على مركزه وقوته وقد كانت
فرنسا التي:

"أشاح الملك الفرنسي بنظره إلى أبعد من ذلك لتجنب انقسام
فرنسا على نفسها من خلال تحالفه مع الأقوى في المنطقة
وعدو إسبانيا وهو السلطان العثماني لتعرف بمعاهدات
الامتيازات العثمانية الفرنسية" (زعتوت، 2011: 45)

لتكون نقطة تحول في تاريخ فرنسا، بحنكتها عرفت الخروج من الفتن والتدهور
الاقتصادي لها وتوجيه أنظار شعبها إلى التحالف مع الأقوى، غير أن السلطان العثماني
كان هو الآخر مسترسل البصيرة حيث أنه:

"عقد اتفاق مع الفرنسيين بغية تخفيف الضغط على خير
الدين". (آلتر، 1989: 109)

لأنه كان بحاجة إلى تثبيت قاعدته في حوض المتوسط لأنها تشكل قاعدة في تثبيت الأمن والاستقرار باعتبار الحفصيين موالين لإسبانيا والعمل على إخضاعهم وحماية ظهرهم.

"وعليه أسرعت المدن التي لم يزرها الأسطول الإسباني بعد،
تطلب دخولها في طاعة كتوابع للسلطة". (وولف، 1986:
(26

وذلك تقاديا لمصير سابقاتها، فكثرة الجبهات المفتوحة ضدهم ويضعف من وجودهم، وقبولهم التحالف مع فرنسا يمثل زاوية الانفراج لهم.

الإمبراطورية الإسبانية في خضم الأحداث الدولية:

شهدت منطقة البحر الأبيض المتوسط أهم الأحداث العالمية في تلك الفترة،

"والتي وصفها الكتاب بالفترة الفتية من تاريخ العالم باعتلاء
شارل الخامس العرش وفرنسوا الأول التاج الملكي الفرنسي
وسليمان القانوني في القسطنطينية". (2: 1841, Rotalier)

وقد كان السلطان العثماني مسترسل البصيرة حيث أنه حافظ على موازين القوى
في البحر من خلال إبرامه لصفقات ومعاهدات لفرنسا وإنجلترا وذلك لغرض في نفسه.

"واصلت نشاطها التجاري في سواحل شمال إفريقيا، ووجدت
كل الحماية بحكمها دول متحالفة مع الجزائر ضد الخطر
الإسباني". (شويتام، 2010: 76)

"عمل السلطان العثماني من أجل دحر التفوق الإسباني على
هذا السطح المائي المهم" (145: 2004, Goffman)

ومن أجل هذا سخر الإمكانيات اللازمة للمحافظة على التواجد التركي في الحوض
المتوسط،

"من خلال استدعاء الإخوة بربروس وتزويدهم بالسفن، وخاصة بعد علمه بتنظيم الحملة الصليبية ليقوم حسن آغا خليفة خير الدين الذي كان متواجد بالعاصمة العثمانية".
(المدني، 1976: 281)

سخرت الدولة العثمانية كل مصادرها لتدعيم الجزائر ودحر عدوها الإسباني:

"وذلك من أجل حماية المدينة وتجهيز المستلزمات
"بدعم المدينة وتنظيم المتطوعين". (عباد، 2007: 65)

ولهول الأرمادة التي نشرت سفنها أمام الجزائر ألهمت كل المصادر الكتابة عنها
غير أن خسارتها الغير متوقعة قصمت ظهر المملكة الإسبانية وكان سببا في نكبتها.

"كان هذا في 1541م وقعت الكارثة المهولة للإمبراطور
شارلكان حيث أن عاصفة هوجاء أفقدت العمارة خمسمائة
شراع على شاطئ الجزائر في 28 أكتوبر" (Haëdo, 1881: 63)

بهذه الكلمات فسرها هايدوا فشل الأرمادة ولم يشكك في:

"قدرات الإمبراطور الذي لم يأخذ بنصيحة البابا بولس الثالث
بعدم خوض معركة بحرية في هذا الموسم" (مؤلف مجهول،
1984: 127)

وأمام انكسار شوكة أقوى إمبراطورية في العالم المسيحي، ولهول الفاجعة والخسائر
البشرية، وخروج الجزائر بهيبة لم تشهداها دولة من قبل،

"حوالي عشرين ألف جندي، إلى جانب استيلاء على عدد
من المدافع والأسرى والسفن والجوع لدرجة أن أمر شارل
الخامس بذبح الخيول التي تبقت من الحملة لإطعام الجنود".
(الشناوي، 1980: 519)

لتكون مصيبة إسبانيا فائدة للجزائر العثمانية وتصبح جوهرة وسيدة البحر الأبيض المتوسط والدّرع الواقي للخلافة العثمانية بدون منازع.

"أصبحت الجزائر من الخيارات التي انتهجتها الدولة العثمانية التي فرض هيمنتها في منطقة الغرب المتوسط". (العزاوي، 2003: 23)

ضمن هذا السياق سجلت الأحداث أيضا صراع بدون انقطاع بين إسبانيا وفرنسا بسبب الإصلاح الديني الذي نشب في ألمانيا فقرر كل إمبراطور واستغلاله لصالحه لتقليب الأوضاع الداخلية للآخر ضمن مآمرات سرية بدعم إمبراطوري.

"فقد انعقد في 1555م مجلس إمبراطوري اعترف فيه بالبروتستانتية كديانة لها في حق الحياة في العالم الألماني بعد أن كان نصف الألمان اعتنقوا أفكار لوثر". (النعني، 1981: 63)

ولم يكن هذا الاعتراف إلا لغلق باب الفتن الداخلية التي عصفت بكل الدول الأوروبية واستغلال ملوكها هذا الانقسام الديني والتطهير الكنائسي إلا لبعث الفتن لكل واحد للآخر.

"فالوضعية العامة تغيّرت المقاومة المشحونة ضد فرنسوا الأول، وشرلكان أخذت نهايتها، وفرنسا لم تعد مهمة بإبقاء أواصر الصداقة مع القوى المسلمة وأصبحت أكثر برودة". (Lucrative, 1914: 62)

وهذا الانفراج سوف يقوي من شوكة كل من فرنسا، إنجلترا مع أفول إسبانيا. بهذه الأحداث يكون البحر الأبيض المتوسط مسرحا لأهم الأحداث لتلك الفترة التي شهدت دخول الجزائر تحت وصاية الدولة العثمانية، وبروزها كقوة في المنطقة لتتحول الأنظار والمصالح إليها، ويبدأ عهد التسابق بشتى أنواعه دبلوماسي، عسكري لقضاء المصالح الدولية.

"كان لهزيمة شارلكان أمام أبواب الجزائر صدى بعيد في كامل بلدان حوض البحر المتوسط، فقد كسبت الجزائر شهرة واسعة بالصناعة اقترنت مع بدء ظهورها كمدينة وكميناء هام ومركز لقوة بحرية". (الميلي، 1966: 29)

أوضاع إنجلترا:

لم تكن إنجلترا أحسن حالا من فرنسا، فقد كانت هي الأخرى تعاني من الأزمات الداخلية،

"حرب الوردتين في الفترة الممتدة ما بين 1455-1485م".
(البطريق، النوار، 1981: 183)

وهما أسرتان من أصل واحد تتازعتا فيما بينهما على العرش ليعود الحكم إلى ثيودور من أسرة لانكستر.

"في نفس الفترة عاود هنري الخامس في 1514م الحرب مع فرنسا، وكان هدفه الحقيقي هو إنهاء عقول المشاغبة في بلده وأيضا الشعب الديني لا يتحول إلى حرب أهلية".
(Maurois, 1937: 262)

وكانت من أولوياته في الحكم هو استرجاع النوماردي التي كانت محل صراع دائم بينه وبين فرنسا، والسبب الدائم لكل الحروب الدائرة بينهم والتي استنزفت كل طرف.

"نورمادي التي استطونها النورمنديون وتنازلوا مع أهلها الإنجليز، ومن امتزاجهم نشأ الشعب الإنجليز الحديث، تحت حكم ملوك أقوياء منذ اتخذ وليام الفاتح إنجلترا مقرا له". (أبو عليه وباغي، 1984: 147)

كما أن الفترة الممتدة من 1580م-1582م شهدت هجمات غير منتظرة من العثمانيون، ليسجلوا حضورهم في البحار التي كانت احتكار على الأوروبيين القراصنة وظهر هذه المنافسة سيفتح أعين الأوروبيين اتجاه الخطر الإسلامي.

"وتمكنوا من أسر العديد من الإنجليز، وشددوا هجماتهم على السواحل الإنجليزية وبلغت جرأتهم إلى حدّ التوغل ضمن المياه الداخلية". (آلتر، 1989: 292)

لم تكن في الحقيقة كل الحروب المندلعة بين إنجلترا وفرنسا تقلق ملوكها، فقد كان في الغالب أمنية يتمناها كلا الطرفين من أجل مآرب وخلفيات سياسية تخدم عرش كل طرف من خلال تشتيت الرأي العام الداخلي.

"كما ساند الفرنسيون الإسكتلنديين ضد إنجلترا وحاولوا السيطرة على تجارة الصوف التي كانوا يقومون بها الإنجليز، وتنازعوا البحارة والصيادون حول الحقوق في القناة الإنجليزية". (صالح، 2009: 57)

كما أن إنجلترا لم تعرف هجمات داخل مياهها أو حتى سواحلها وهذا ما جاء على ذكره Godfrey:

"لا يتوفر لدينا من أدلة مفيدة عن هجمات المسلمين ضد إنجلترا قبل 1624م". (Godfrey, 2000: 432)

"تعود بعض التجار الإنجليز التردد على سواحل البلدان المغاربية قبل أن تكون هناك علاقات رسمية ويعود التعامل الرسمي لإنجلترا مع الجزائر إلى أواخر القرن السادس عشر. وكان ذلك بناء على الامتيازات التي منحها السلطان العثماني للإنجليز 1578". (شويتام، 2010: 75)

بالإضافة إلى الامتيازات التي خصّها العثمانيون بجواز سفر في حوض المتوسط:

"في 1583، توما شنلتون تحصل من باشا الجزائر جواز سفر الذي بموجبه يضمن الحماية لسفنه إذا تلزم عليه تجارته الدخول إلى المياه الفرنسية والإيطالية". (: Godfrey, 2000)
(106)

ولذا فإننا إذا أذعنا إلى الكتابات المختلفة العثمانية منها أو الإنجليزية حسب مؤلفيها وأخضعناها للمفهوم الصحيح فسيتضح لنا أن هذه الاختلافات راجعة في أغلب الظن إلى نزعة كل مصدر.

وقد أثارت الهجمات والكره العثماني لإسبانيا أفكارا متنوعة عن اقتراب ضعف الإمبراطورية ودنو أجلها وعلامات واضحة لتقهقر سلطتها أمام العملاق العثماني:

"يمكننا تأكيد الهيمنة التركية (العثمانية) في بلاد البربر أصبحت مؤمنة بطريقة نهائية بعد حصولها النصر البحري الكبير في 1560 من طرف دراغوت وبيال على حساب البحرية الإسبانية بالقرب من جربة، ليكون من المحتمل لأول مرة قبول هذا النصر بحماس في إنجلترا" (Godfrey, 2000: 128)

لقد أخفقت سياسة إسبانيا اتجاه إنجلترا من خلال اصطناعها للمآمرات ضدها وقلب الشعب عن ملكته إليزابيث بتوجيه أرمادة إلى شواطئها.

"وكان العامل الأكبر في قيام تلك الحرب المنافسة الملاحية في البحار والمغامرات التي قام بها الإنجليز في المناطق التي يعتقد الإسبان أن احتكار لهم... فانهزم الإسبان ولم يعد الأسطول الضخم إلى الشواطئ دليل على أنها لم تعد فوق مستوى الهزيمة". (البطريق، النوار، 1971: 198)

الدولة العثمانية تتزعم العالم الإسلامي:

كان الفتح العثماني العسكري لأوروبا هو آخر فتح إسلامي لها في التاريخ الحديث والمعاصر، في وقت كانت فيه موجة الإسلام تتحصر في الأندلس مع سقوط غرناطة آخر معقل الإسلام، ليكونوا الساعد الأيمن هؤلاء المسلمين المهجرين لضرب الإسبان كما جاء في:

"من المؤسف كان المركسيون هم الحلقة، والضغط بين الإمبراطوريين على السواحل أين يقوم القراصنة بـ"غزة Jihād-guerra Santa تحت المباركة العثمانية".
(Angel, 2009: 56)

وفي موازاة حركة المد والجزر بين العثمانيون والإسبان واستبداد الحركة البحرية وخاصة بنقل المهجرين الأندلسيين واليهود إلى سواحل الشمال الإفريقي واتخاذهم قاعدة لهم.

"كانت الدول الأوروبية تنعم في مجموعها باليقظة القومية وتتفرض عنها معالم الحياة الإقطاعية التي سادت في العصور الوسطى إثر الحركة الإصلاحية الدينية التي تبناها رجال". (ياغي، 1996: 16)

أرادوا بذلك إصلاحا جذريا للكنيسة التي كانت سببا في تدهور السياسة ويشكل هذا الإصلاح بدوره منعطفا في تاريخ هذه الدول التي سوف يبرز دورها في خضم هذه الأحداث.

ولعل أهم خصائص الفتح العثماني هو جزيرة رودوس لتكون أهم حدث تاريخي كما جاء في التحليل التالي:

"لتكون حلقة اتصال بين القسطنطينية ومصر من جهة البحر ولكي لا يكون للمسيحيين مركز حصين في وسط

بلاده تلجأ إليه عمارات الدول المعادية للدولة في وقت الحرب". (المحامي بك، 1988: 203)

علاوة على هذا هو دخول مصر ضمن الممالك المحروسة للدولة العثمانية بعد حملة قادها الصدر الأعظم ويمكن إرجاع هذا التوسع إلى عدة أسباب وغاية في نفس العثمانيين.

"الأحداث عالمية وقعت حول أطراف العالم العربي، ويقصد بهذه الأحداث زحف الاستعمار الأوروبي على جناحي العالم العربي وتصدي العثمانيين لهذا الزحف لمنع إطباق فكي الكماشة الأوروبية على دار الإسلام". (ياغي، 1997: 31)

وكان لهذا أثر كبير ومهم لدعم الأخوين بربروس في الحملة الجهادية ضد الإسبان لتتحول فيما بعد إلى مسألة الهيمنة والانفراد بالمكان، أما من الجانب الإسباني كان الهدف من الحملات الصليبية كسب الشعور والتعاطف والمآزرة الدينية من العالم المسيحي.

اصطدام العثمانيون بالصفويين:

كان السلطان العثماني على دراية تامة لما يجري من حوله من الخطر الشيعي الممتد،

"ولما اعتلى سليم العرش هب لاستئصال الخطر الشيعي الزاحف عليه، فاستصدر من شيخ الإسلام فتوى تحتم ضرورة قتال الشيعة باعتبارهم خارجين على الدين القويم". (ياغي، 1997: 17)

ولم يدخر السلطان قوته بضرب الفرس ولم يكن بغافل عن المآمرات المحاكاة بين الغوري ملك مصر والشاه إسماعيل، والتي كانت سببا في استنفار العثمانيين،

"يُرجع الغوري حقيقتها إلى نيته في التوسط بين الطرفين لتفادي الحرب الدامية، غير أن معاملة الغوري السيئة لسفراء الإمبراطورية العثمانية أثبتت عكس ذلك". (حليم، 1988: 83)

"مما عجل من تحرّك الجيش العثماني لتأديته والتخلّص منه، وكان على رأسه السلطان بنفسه وانتصرت الجيوش العثمانية وفتحت المدينة ودخلها السلطان في 4 سبتمبر 1514م واستولى على خزائن الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية وأرسل أربعين من أمهر صناع هذه المدينة". (المحامي بك، 1988: 190)

وكان الغرض من هؤلاء الصناع هو إثراء القسطنطينية والاستفادة منهم فقد كان ملهما بالحدثة، ويمكن أن يكون راجع إلى استطراد السلاطين العثمانيين بالحدثة فقط في القسطنطينية عاصمتهم، فيمكن الملاحظة على عدم وجود نفس المعالم في الأقاليم التابعة لهم.

"وكان قد بعث سابقا ضباط البحرية لصناعة السفن إلى مصر واستخدموا قراصنة في غربي الأناضول في الأسطول المملوكي". (عبد العزيز، 1973: 70)

ويمكن الملاحظة أن كل من الشاه ونظيره المصري أغفل سياسة التدرج في الفتح وتعين الهدف مباشرة عدم إغفال قوة الخصم، عكس السلطان العثماني الذي تميّز برجاجة العقل وقد استفاد هذا الأخير من تجربة أسلافه مع النزوح الشيعي والذي وصل حتى:

"حروب طاحنة بين الصفويين والعثمانيين استمرت ما يربو على قرنين، ورغم ما كان يتخلل هذه الحروب من اتفاقيات ومعااهدات سلام، لم يسد بينهما سلام حقيقي". (الهردي، 1987: 51)

ولعل أطماع الصفويين ما جعلت العثمانيون يراقبونهم ويتحركون بسرعة قبلهم،

"وكان استيلاء الشاه إسماعيل على العراق من أهم العوامل التي وجهت أنظار الدولة العثمانية نحوه وتحرك سليم الأول وهزمه في موقعه جالديران 1514 الشهيرة". (نوار، 1980: 271)

وبهذا التصرف أغلق العثمانيون باب الفرس، الذي كان الأخطر من الأوروبيين، ولو لم يضرب بحزم لنسف الدولة العثمانية من داخل بلاطها لتغلغل هذا المذهب الخطير في عقول الناس وحتى أكبر السياسيين في البلاط.

السياسة الدولية للسلطان سليمان القانوني:

استطاع السلطان القانوني أن يفرض حضوره في البحر الأبيض المتوسط من خلال تحقيق حلم أجداده في جزيرة رودوس، معقل القراصنة المسيحيين، لتكون حلقة اتصال بين القسطنطينية وباقي أقاليمها في الغرب.

"استغل السلطان انشغال ملك فرنسا فرنسوا الأول وشارل الخامس وألمانيا محاربة بعضها والبابا ليون العاشر منشغلا بمجادلة ومقاومة الراهب الألماني لوثر مؤسس البروتستانتية". (المحامي، 1988: 204)

لطالما كانت جزيرة رودوس موقع متقدّم خطر مسيحي في الحقيقة، وحصن ضد المسلمين.

"فقد كان القراصنة المسيحيين يستولون على العديد من السفن المحملة بالحبوب والذهب من الإمارات العربية، ويفضل استيلاء على رودوس 1523م، أنقذ غرب المتوسط". (Standford, 1988: 126)

لتكون بذلك رودوس وفتحها الحدث الأهم في خضم تلك الصراعات وأكبر إنجاز للسلطان سليمان لأنها كانت بمثابة برج المراقبة للمسيحيين، وشوكة في حلق المسلمين،

"التي كانت هاجس السلاطين من قبل، غير أنها قوة تحصيناتها ودفاعاتها وقفت حائلا أمام كل من يفكر في فتحها، وقد جعل هؤلاء الفرسان أنفسهم رأس الحربة المسيحية". (دبلان، 1997: 20)

وبعد طرد الفرسان من الجزيرة وإخلائها توجهوا إلى جزيرة مالطة التي تنازل عنها الإمبراطور الإسباني شارلكان في 1530م تعويضا لهم عن الخسائر التي تكبدوها جراء طردهم،

"ولكي يجد فيهم من جهة أخرى سندا قويا لحملاته على الشواطئ الإفريقية وحاجزا متبعا ضدّ التوسّع البحري العثماني وتقدّمهم نحو الغرب". (ياغي، 1997: 26)

أصبح هاجس العثمانيين يلاحق القوى المسيحية التي كانت تتخوّف من امتدادهم في البحر لذا سخروا كل إمكانياتهم لمنع هذا التوسع على المدى البعيد.

"والتزامهم لإسبانيا وتقديم الطاعة والولاء لها ضد كل من يتجرأ عليها، وبالفعل قد شارك فرسان القديس يوحنا في الحملة ضد الجزائر وبلغ عددهم حوالي 140 فارسا و400 مقاتل من خيرة قواتهم العسكرية". (الجمال، 1971: 282)

كما اتّسمت الفترة التي تزامنت فيها الأحداث واحتدام الصراعات الدولية لتصل ذروتها، بروز ثلاث أقطاب يمكن وصفها بأنها العصر الذهبي للتاريخ العالمي، وذلك بسبب الشخصيات الحاكمة التي برزت وتحكمت في هذه الفترة والتي ساعدت في قلب الموازين وإثراء التاريخ الدولي بأبعاد سياسية ودبلوماسية غيرت من خريطة العالم في تلك الفترة، فمعاصرة كل من السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الأول وشارلكان مع ظهور

الملكة إيزابيث في فترة متأخرة غير من طبيعة المصالح والعلاقات بين كل الأطراف. وبالمقابل نزع جزيرة رودوس من أيدي المسيحيين، قام الإمبراطور الإسباني:

"بإحداث التوازن في المنطقة من جديد من خلال تخليه في 1513م عن طرابلس لنائبه بجزيرة صقلية، فغدت طرابلس تابعة إداريا لها وبذل النائب جهودا في سبل إعمار المدينة وتشجيع المهجرين الصقليين على الاستيطان بها، وذلك بمنحهم الأراضي الزراعية وإعفاءهم من الضرائب". (ياغي، 1997: 25)

وكانت هذه التنازلات من أجل أن يكون له العون ضد العثمانيين وتقيد حركتهم في المنطقة المتوسط وضمان موانئها لتكون قاعدة انطلاقهم ضد الهجمات الإسلامية لسفنهم،

"لتشهد المنطقة صراعا بحريا كبيرا أو بالأحرى حربا بحرية طاحنة بين الجانبين" (فارس، 1979: 12)

كما عرفت هذه الفترة بعض الانفراج بين العثمانيون وفرنسا في حروبها التوسعية على حساب إيطاليا من خلال المساعدات التي قدمها السلطان سليمان لملك فرنسا واتفاق المساندة العسكرية،

"غير أن توجه السلطان لفتح ألبانيا، ليصل إلى مسمع السلطان أن الأصدقاء الغير مخلصين أجمعوا على اتفاق المصلحة العامة لأوروبا تحت ضغط البابا ووضع حدا، لتسحب فرنسا من إيطاليا ويكرسوا جهودهم ضد العدو الأول وهو الخطر الإسلامي على أوروبا". (Standford, 1983:)

(140)

لكن حنكة السلطان وفطنته لم تعجل من انسحابه أمام هذا الحلف المسيحي وإنما انتهج سياسة الترقب والتفريق وذلك من خلال الصفقات التجارية البحرية الممنوحة لكل طرف،

"وذلك من خلال تسهيل الحركة الملاحية في البحر المتوسط، وبمنحها مجموعة من الامتيازات وكانت تلك الامتيازات سببا رئيسيا في اشتداد التنافس بين مختلف الدول". (أباضة، 1987: 80)

في نفس الوقت سعت إنجلترا إلى فرض وجودها بطريقة سلمية وذلك من خلال إبرام معاهدات تجارية لضمان وتبرير وجودها في الساحة المتصارعة عليها.

"في المغرب، أول خطوة رسمية تمت من خلال إقامة شركة تجارية مع إنجلترا بطريقة دائمة" (Godfrey, 2000: 130)

خضوع الحجاز للسيادة العثمانية وانعكاسه على دعوة الجزائريين لهم:

"الدعوة المحمدية باعتبارها منظومة اتصالية مرجعية، كون الرسول صلى الله عليه وسلم عكف على إقامتها بمنهجية وعلاقات عقلانية وإدراكية أدى إلى تكوين الدولة الإسلامية ولكونه فضاء عموميا قاعديا لقوى التماسك أثر في سيروية المجتمع الإسلامي". (بن غربية، 2011: 135)

على هذا النحو جعلت الإمبراطورية العثمانية توجه كل ثقلها نحو الحجاز أي الأراضي المقدسة،

"خاصة مع تواجد الخطر البرتغالي بعد اجتيازهم رأس الرجاء الصالح 1498م، وتحويل التجارة عن الطريق الغربي، عجل في تدهور اقتصاد الموانئ المستفيدة آنفا عن طريق البحر الأحمر صوب جدة وينبع في البحار". (جلال، 1999:

ومن الأسباب المباشرة التي أدارت اهتمام السلطان العثماني نحو المنطقة، هي سلسلة الاضطرابات التي شهدتها مصر والأقاليم المحيطة بها ضد الخطر الشيعي الذي كان يتحرك لتنفيذ مخططاته،

"بعد وقوع الاضطرابات في الحجاز ضد الحكم المصري المملوكي الذي كان الحجاز تابعا له، حيث قام الغوري باعتقال بعض قضاة ورجال العلم الحجازيين في القاهرة".
(ياغي، 1997: 43)

وهذا التصرف الطائش جعل أشرف مكة يتوجهون برسالة تظلم وطلب الدخول في طاعة السلطان،

"وإن كان في الأصل بغرض محافظتهم على أحقية نظام الشرافة في مكة لكي لا ينتقل إلى خصومهم، ومع القضاء على الحكم المملوكي في مصر، أصبحت اسطنبول مركز الخلافة الإسلامية وأعطى السلطان نفسه لقب خادم الحرمين لاكتساب لعواطف العرب والمسلمين خاصة". (سعود، 1997: 24)

لم تكن هذه المبادرة منعزلة، بل كانت قدوة لعلماء الجزائر ومدى تطلعهم على الأحداث ورؤيتهم الحكيمة البعيدة عن السذاجة، كما وصفتهم بعض المصادر والمشككين في رجاحة عقول أهل العلم بالجزائر.

"بأول اتصل بعروج بالجزائر سنة 1512، عند طلب أهل بجاية مساندتهم على طرد الإسبان، هذه الدعوة سوف تحدث منعرجا كبيرا في حياة عروج والجزائر". (عباد، 2007: 44)

لنكسب الجزائر حاميا مسلما أقلق نوم المسيحيين، وساعد في تخليص المسلمين المهجرين من الأندلس، وسوف يصبحون جنودا ناقلين على إسبانيا ومخلصين للعثمانيين بهدف الانتقام واسترداد الأندلس من المسيحيين.

"لتشهد منطقة البحر الأبيض المتوسط صراعا بحريا مسلما،
تأرجحت الكفة فيه، ولولا جهودهم لتبلور الاحتلال الذي
حدث في توازن القوى". (العدي، 2011: 9)

ومن خلال الرسالة التي بُعثت إليها تلخص حقيقة الدعوة التي عرضت على
الأخوين،

"سبقى للأبد النجاح الباهر الذي توج شركتكم النبيلة، والآن
أنتم فقط ببيدكم تخلصنا من ظلم الكفرة" (Rosseau, 1841:
10)

علاقة العثمانية بالأسرة السعدية في المغرب:

كانت السلطة الحاكمة في المغرب الأقصى مع بداية التدخل العثماني الواسع
النطاق في الشمال الإفريقي في القرن 16.

"هي سلطة بني وطاس البقية من بني مرين والتي قد آلت
إلى درجة كبيرة من الضعف فكانت بذلك من الأسباب
المباشرة لنجاح الغزو البرتغالي". (سالم، 2011: 49)

"وقد أسس البرتغاليون خلال تقدمهم عددا من المستعمرات
في شواطئ المغرب الأقصى، كانت أولها سنة 1415م،
القصر الكبير 1452م وطنجة 1471م". (شويتام، 2010:
69)

وكان ضعف هذه السلالة الحاكمة أساس بروز قوة الأشراف السعديين، من خلال
جهادهم ضد البرتغاليين للساحل المغربي مع نمو سلطتهم واشتداد عزيمتهم، وأعطى هذا
الدفع المغاربة لمشاركة الجهاد في البحر إلى جانب العثمانيين، غير أن هذا التكامل بين
الطرفين لاح في الأفق بخطر كبير لا يخدم صالح الحكام السعديين وعليه ارتأت السلطة

السعدية لتطبيق النطاق على نفسها وانتهاج سياسة العزلة لإبعاد خطر العثمانيين عنهم واكتفوا بالحلول الدبلوماسية.

"وبهذا الصدد لم يعتمد المغرب في علاقته بأوروبا كما الشأن بالنسبة لباقي الدول الإسلامية واكتفى السلاطين من إبقاء عدد من المبعوثين كلما دعت الضرورة". (الغساني، 2005: 18)

ومهما تعددت أسباب انعزال المغرب عن الصراع الدائر في المنطقة، إلا أنه لم يخلو من تدخلات سلاطينها في كل فرصة على حساب الأراضي الجزائرية ومحاولة ضم تلمسان،

"فكان الحال عندما جهّز حسن باشا جيشا من خمسة آلاف رجل وألف صباحي وعشر مدافع". (عباد، 2007: 73)

فأنهت عرش بني زيان لصالح العثمانيين رغم عدم استقرار الجهة الغربية وهذا كان بداية قطع الطريق عن المغرب في المنطقة، حتى أن الأمور انقلبت عليها لتصل،

"عندما أسير أبو حسون خلال حملة شنّها صالح راييس، على السواحل الإسبانية تنفيذا لمطلب ملك فرنسا هنري الثاني الذي أراد منه مضايقة الإسبان بناء على اتفاقية المبرمة بين العثمانيين ومملكة فرنسا". (الميلي، 1964: 84)

حيث قام هذا الأخير بعرض مساعدته على العثمانيين من أجل استلائهم على فاس، ودحر المطامع المغربية في الجهة الغربية، وأيضا استعراض لقوة الإمبراطورية العثمانية أمام عدم انصياع المغرب له ليكون إيالة تابعة له، في المقابل سوف تكون هناك ردود فعل أوروبية مثل،

"تعاونت السفن الهولندية البحرية التابعة قيوم أورنج، مع المغرب ضد الجزائر بينما سفننا قامت بالعكس تماماً" (Godfrey, 2000: 416)

كما أن أول عمل عسكري مشترك مع العثمانيين في الجزائر كان في البداية في حملة عسكرية ضد إسبان وهران في سنة 1550م من المتوقع دحر الإسبان حتى في عقر دارهم غير أن الخيانة من الجانب المغربي،

"الأمير المغربي وضع عسكره تحت قيادة أولاده، وبعد دخولهم تلمسان كحلفاء احتلوها والأخ الآخر استولى بعنف أراضي بني عامر، ليتوجه الجيش التركي بسرعة لدحر لحلفائهم الخائنين بعد معركة دامية هزم الجيش المغربي وتكبّد خسائر فادحة". (Grammont, 1887: 76)

كما أنه رغم سياسة الانغلاق التي انتهجها المغرب وخاصة في بداية ظهور العثمانيين على الساحل الجزائري، أحبطت خطط الخلافة العثمانية إلى الولوج إلى المحيط الأطلسي لتضيق فرصة لهم بمرور الزمن، ولكن هذا لم يمنع المغرب من اختيار جانبها الذي تبرم تحالفها معه.

"فقد دخل الشريف محمد المهدي الثاني (1517م-1557م) في علاقات تجارية مع بريطانيا وبدون تردد عارض التقدم التركي في مناطقه، صدّ مسيرة الأتراك (العثمانيون) باتجاه الأطلس، وقد بدى شعور الإحباط لدى العثمانيين في اغتيال الشريف". (حمداني، 2006: 6)

"غير أنّ هذه الإحباطات لم تمنع وصول صالح رايس واستلائه على فاس وتتصيب أبو حسون عليها، ويتواطأ معه في شهر جانفي 1554م تحت الحماية العثمانية، بعد أن

أرسل الغنائم التي أحرز عليها إلى القسطنطينية وإلى الجزائر". (الميلي، 1964: 84)

غير أن الشريف استرجع مدينته بعد خروج العثمانيين منها وغير عاصمته إلى مراكش الأكثر مناعة وحصانة، فالمغرب لم تكن بتلك السهولة التي حضي بها القائد العثماني سنان باشا عند استيلائه على تونس ومن العوامل المشجعة والتي جعلت المغرب أكثر تعقيد من النيل منها كانت تجربتها في الجهاد،

"خاصة وقد أحرز المغاربة نصرا كبيرا على البرتغاليين في معركة وادي المخازن 1578م جعلهم محط تقدير السلطات العثمانية، فتوقفت الحملة المعدة ضدّهم وأيضاً ظهور شخصية قوية حاکمة المنصور السعدي". (نوار، 1966: 110)

تتضارب الآراء حول حقيقة وقف العثمانيين أنظارهم نحو المغرب، فحسب غرامون، ينسب هذا التراجع إلى عدة أسباب منها:

"عندما جهّز علج على حملة لغزو المغرب، فثار المتمرّدون في الداخل واليولداش واتهموا الأميرال في نيته خلق مملكته المستقلة بهدف تغلب شكوك الديوان، كما تمّ استدعاؤه عندما ثارت ثورة واحتاجوا لكل الدعم لإخمادها". (Grammont, 1887: 121)

"ليغتتم الفرصة السعديون وأرسلوا بعثة إلى القسطنطينية تحمل الهدايا، وعليه تكرّرت السفارات وآمنوا شر العثمانيين". (بلحميسي، 1979: 16)

هذا وقد أخفق العثمانيون في التوغل اتجاه المغرب واكتفوا بدحرهم في الجهة الغربية للجزائر العثمانية وانتهاج سياسة الترقب لزعزعة القرار السياسي الداخلي للمغرب من خلال سياسة الانقلاب والتحيز لطرف ومساعدته إذا ما طلب منهم ذلك، وإن كان

الأمر ذاته للمغاربة، فاستغلالهم وضعية الفراغ أثناء تغير الحكام وما ينجر عليه حفزهم في استغلال الموقف والزحف على حساب الجهة الغربية وخاصة تلمسان وحلمهم لضم المملكة الزيانية لهم.

"في 1557م استغل شريف مولاي محمد الفوضي التي اجتاحت قرابة العام ليجتاح مقاطعة تلمسان سار البيرلياي للنجدة بستة آلاف فارس تركي وستة عشر ألف من الأهالي، عند وصوله أخذ الرعب من المنظر لينسحب المغاربة ما وراء الحدود ليلحق بهم الجيش الجزائري إلى أسوار فاس".
(Grammont, 1887: 87)

الفصل الثاني: التقرب السياسي الفرنسي

الإنجليزي من الجزائر العثمانية

- 1- العلاقات الجزائرية الفرنسية والإنجليزية.
- 2- التسابق الفرنسي والإنجليزي اتجاه الجزائر العثمانية وآثارها.
- 3- مساهمة القنصليات في التبادل التجاري بين الطرفين.

مفهوم العلاقات الدولية:

مصطلح يشمل السياسة الدولية والتنظيم والإدارة، والقانون الدولي، والمقصود تلك العلاقة القائمة بين الدول المختلفة، وتنقسم إلى قسمين سلم وحرب.

"ففي حالة الحرب فالعلاقة علاقة عداء، أما في السلم فقد تظهر العلاقات السياسية، وهذا التمثيل وليد العصور الحديثة، ونشوء القانون الدولي وتطوره". (عمر، 2000: 11)

كما اختلفت المدارس حول هذا المفهوم، الذي كان عبارة عن تمثيل خارجي بواسطة بعثات وتغيّرت بتغيّر مظاهر النهضة الأوروبية، ليصبح عن طريق القناصل والسفراء وعقود تجارية، ونقضها يدفع إلى صراع دولي، وهو نتاج للنهضة التي كانت مع بداية القرن الرابع عشر، على أنه مرحلة انتقال بين العصرين الوسيط والحديث لاعتبار الأخير وقعت فيه الأحداث التي أثرت في مجرى التاريخ.

"ففيه سقطت القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين 1453م وغرناطة في أيدي فرديناند وإيزيلا 1492م". (رمضان، 1996: 5)

ليبدأ التاريخ الحديث في كل بناء التحتية، فيما فيها علاقات الدول إزاء بعضها البعض، ليتبلور ليصبح عبارة عن تصادم في المصالح لينتهي بصراع سياسي حدودي دولي انجرّ عنه الحروب وإبرام،

"العقود والمعاهدات، فإن التوصل إلى حل دائم لمشكلات الصراع والحرب ليس أمرا سهلا" (العقابي، 2010: 11)

بداية الصراع الدولي في حوض المتوسط:

إذا ما أخضعنا مصطلح الصراع الدولي للمفهوم الصحيح لكل من السيطرة أو الدفاع أو المفهوم الاستراتيجي، فسيُتضح لنا أن هذا الصراع ليس إلا امتداد السياسة المواجهة للخطر،

"الذي يهدّد كيان ووجود كل دولة مهما كانت قوية لتثير أحداث مشيرة إلى هبوب رياح التغير على المنطقة وتوقع تحولات جذرية جديدة". (الزیدی، 2001: 11)

"فهذا التضارب في المصالح وصراع الولايات البابوية، وكل من فرنسا وإسبانيا لامتلاك شبه الجزيرة الإيطالية، لما آل إليه من آثار اقتصادية وسياسية بعيدة المدى والحفاظ على مصالحها داخل القارة". (نوار، 1999: 85)

فرضت هذه السياسة في فرض الوجود لهذه الدول الحديثة التي انتهجت سياسة التوسع من خلال توسعها التجاري ليكلّل فيما بعد بتوسع احتلالي هدفه فرض الهيمنة على الغير.

"التجاري، وبالرغم من أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية شرقية إلا أنها كانت تعد من ضمن الدول الأوروبية وذلك لتوسعها وسيطرتها على كثير من البلاد الأوروبية". (عمر، 1992: 50)

"وهذا ما سهّل مهمة فرنسا وإنجلترا في انتهاج سياسة التقرب التجاري وإن أخفت نواياها، فامتداد ممتلكاتها في أوروبا وآسيا وإفريقيا". (ياغي، 1996: 20)

هو ما حرّك هذه الدول بدءا من المشرق لتكون الجزائر طرفا في هذا الصراع باعتبارها دولة حديثة أوفت المقاييس.

بداية الصراع بين الجزائر العثمانية وممالك أوروبا:

تسارعت وتيرة الأحداث في حوض البحر الأبيض المتوسط ليقترن كل مجهود في البحر المتوسط، وليرتبط بدورهم بالجزائر لتصبح مقاطعة عثمانية، من جهاد وكفاح ضد ممالك أوروبا وأتباع البابوية بمفهوم القرصنة، وهذا المصطلح الذي سيتحول إلى فزاعة من أجل تجييش الجيوش وتسخير الأموال والمقدرات لتبرير الحرب على العثمانيين في المشرق والمغرب.

"كان ثلاثة قرصنة غير دراغوت يجوبون البحار بالعنف والقوة لم يكونوا أقل جرأة منه بالإضافة إلى بربروس ليعتدوا على مدينة إسبانية بمضيق جبل طارق، ومن هؤلاء القرصنة يصبح ملك الجزائر بسبب خدمته للسلطان سليم".
(Dan, 1646: 22)

"ليطلق عليها المسيحيون بوكر القرصنة غير أن الحقيقة أن هؤلاء المدافعين عن السفن الإسلامية المبحرة في الحوض، نظموا ونشطوا وجعلوها من مهام الدولة". (عباد، 2007: 20)

انطلقت هذه المبادرة من الإخوة بربروس اللذين جعلوها حرب بحرية أجفت النوم من جفون الإسبان، وجنّدت المهجرين الناقمين على الإسبان، وتوفر النزعة الانتقامية الذي زاد من توغل العثمانيين في البحر بغية الجهاد ورد الاعتبار الإسلامي.

"منذ ذلك الوقت، الإخوة الثلاثة الناجون، قاموا بحروب مروعة ضد المسيحيين، ولحسن حظهم لم يتأخروا في انضمام قرصنة لهم". (Grammont, 1887: 21)

ويرجع تفوّقهم وبراعتهم البحرية من خلال حياتهم السابقة البحرية، ثم مساعدة،

"السلطان بيزيد، غير أن البحرية العثمانية عرفت أوج
ازدهارها في فترة حكم سليمان القانوني حيث أصبح
الأسطول سيّد البحر الأحمر والمتوسّط وبحر إيجه وممرّة
والأسود". (الدغيم، 1994: 395)

بداية العلاقات بين الجزائر العثمانية والدول الأوروبية:

ارتبطت الجزائر نهائيا بالخلافة العثمانية لتصبح الذراع الذي تستعين به لضرب
أعدائها في البحر الأبيض المتوسط، وقد أضحت خطرا على أوروبا، وحارس البحر
الأبيض المتوسط.

"وشوكة حادة تنغمس في جنباتها، وقد بلغ هذا الخطر أشدّه
في عهد سليمان القانوني 1520-1566م". (كروزيه، 1994:
550)

وكانت البداية مع سلسلة الحملات على الجزائر، ولا تكاد تخلو حملته إلا وإسبانيا
وراءها وأهمها حملة 1541م والتي شاركت فيها حتى الكنيسة الكاثوليكية.

"ففي سنة 1539م وافق البابا على منح الإمبراطورية
(الخلافة) نصف مداخل الكنيسة". (عباد، 2007: 65)

ولم تسجّل هذه الفترة تدخلات أخرى لأسباب داخلية لكل دولة، أو الصراع الدولي
بينهم. ومع اتفاق والتقارب بين البابا العالي وفرنسا خفّ الضغط من جهة
الفرنسيين لتخلو الفترة من تدخلات عسكرية فرنسية.

"هزيمة فرنسوا الأول أسفرت عن أول العلاقات الدبلوماسية
الفرنسية العثمانية في 1525م". (Berbrugger, 1860: 89)

"ومع ظهور اتفاق الفرنسي العثماني ومساعدة العثمانيين
للفرنسيين ورد أذى الإسبان عنهم ويكون الفضل لخير الدين

في تكوين هذا التحالف، سوف تعلق جبهة واحدة". (آلتر،
1989: 93)

وبدأت بوادر هذا التحالف الفرنسي الجزائري من خلال اتفاقيات سرية بين الطرفين
بوساطة الباب العالي.

"في 1552م بعث هنري II إلى البيلربايات لإغلاق السواحل
الإسبانية، في نفس الوقت دراغوت على رأس أسطول
عثماني لاعتراض سفن الدوق آلبي، لبي صالح رايس دعوة
ملك فرنسا في بداية 1553 على رأس أربعين سفينة حربية
باتجاه ميوقة وبدأ بالنهب لتعرضه حامية ماهون لتكبد
بعض الخسائر". (Grammont, 1887: 79)

"هزيمة فرنسوا الأول أسفرت عن أول العلاقات الدبلوماسية الفرنسية العثمانية في
1525" (Berbrugger, 1860 : 89)

هذه التطورات من الجانب الفرنسي ضمنت حق حماية العثمانيين لهم، في نفس
الوقت نهكها الحروب، كما أمنت جانب الإنجليز لتحقيق الضغط على نفسها واستعادة
عافيتها وذلك من خلال أنهكتها إبرام معاهدات مع إنجلترا لتخفيف الخناق عليها.

"مع إنجلترا منذ 1513 لتجدد في 1522 إلى أن تهادنت مع
هنري على أن تدفع له أتاوة سنوية". (البطريق والنوار، 1974:
186)

ومع اتخاذ العثمانيون الجزائر قاعدتهم لكونها ثغرا من ثغور الإسلام خاصة بعد
ضياع الأندلس، "وقد سميت بدار الجهاد" (بن حموش، 2000: 22)

قبل أن نتطرق لهذه العلاقات الدولية، والتي كانت بعيدة عن أي اتفاق إزاء
الإمبراطورية الإسبانية التي لم تتخلى عن حملاتها الصليبية ضد السواحل الجزائرية ومع
تكرار سلسلة الحملات،

"حملة ديغوادوفيرا 1516م، دون هيغوامونكازا 1519م، أندريا دوريا على شرشال 1531م، شارلكان 1541م، حملة البابا بيوس الرابع 1559-1560م التي اشترك فيها فرسان مالطا، حملة فاسكون 1567م، بمساعدة ملك إسبانيا، حملة 1601 التي اشتركت فيها قوات البابا، جنوة، نابلي وحملة الهولنديين 1620-1662م". (بوعزيز، 1980: 18)

وجه العثمانيون كل ثقلهم نحو الداخل حتى تتم الأمور لصالحهم، وقاموا بالتنظيم الإداري والعسكري، وتجنيد الجنود المبعوثين من الدولة العثمانية ليستطيعوا التركيز على السياسة الخارجية التي كانت تتكالب على سواحل الجزائر ومنع هذا التحالف.

"عندما عجز خير الدين بربروس، أول بايلربيات الجزائر 1519-1534م عن طرد الإسبان من المدن الساحلية فكر بإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية عام 1519م. عندئذ طلب من السلطان سليم الأول أن يرسل له عددا من الجنود ليساعده على استرجاع المدن المحتلة، وإخضاع القبائل الجزائرية المتمردة". (شويتام، 2010: 13)

معركة ليبانت ومصير البحر المتوسط:

أفضت هذه المعركة لعدة نتائج من الجانب العثماني فقد اشتدّ سخط العثمانيين في إسطنبول وعدم تقبلهم لهزيمة أحدثت ضجة كبيرة.

"لما وصل خبر هذه الحادثة هاج المسلمون على المسيحيين وهموا بقتل المرسلين الكاثوليك لولا تدارك الوزير بأن يحجز المرسلين وقد أخرجهم بناء على إلحاح سفير فرنسا" (المحامي، 1988: 258)

أما من الجانب الأوروبي وقد كان النصر لهم فقد عمّت الاحتفالات وأقنعوا شعوبهم أن لا يوجد إمبراطورية لا تقهر.

"تم الاحتفال بمعركة لبانت عبر أرجاء أوروبا كاملة، كانت أول مرة منذ القرن الخامس عشر انهزم العثمانيون، وأول مرة بدأت أوروبا استيعاب أن العثمانيون ليسوا بتلك القوة إلا فيما سبق" (Standford, 1983 : 255)

كما تكمن أهمية هذه المعركة لاعتبارها نقطة تحول في ترجيح الكفة للدول الأوروبية أمام الأسطول العثماني الذي لطالما أزعج المسيحيين في حوض المتوسط. وتبرز الجزائر بقائدها الذي مدحه الأوروبيون على شجاعته وحسن إدارته لأسطوله.

"فكانت المعركة في 7 أكتوبر 1571م وكان الأسطول الجزائري بقيادة علج علي في الميسرة". (عباد، 2007: 94)

الذي استطاع المناورة وإنقاذ ما بقي من الأسطول العثماني المحطم وحفظ ماء وجه العثمانيون غير أنه أصبح نقطة ضعف العثمانيين فيما بعد فهذا الخلل البحري وتراجع كفاءة بحارته عكس بالسلب على البحرية العثمانية لكن الأسطول الجزائري لعب دورا حاسما في المعركة.

"غير أنه تمكن من الاستيلاء على السفينة التي تحمل الراية البابوية".
(المدني، 1984: 398)

يتّضح من خلال هذه الأحداث أن الأسطول الجزائري كان بمثابة القلب النابض للأسطول وأكثرهم دراية بالبحر، لذا سوف يعمل الباب العالي على إحداث تغييرات في نظام الحكم بالجزائر العثمانية تحسبا لأي انفصال في المستقبل. وأيضا المعركة كانت ثمرة جهود البابا في إقناع كل الأطراف بالاتحاد ولسوء الحظ هذا التحالف لم يحافظ على رباطه بعد موت زعيمه الروحي البابا يول الخامس.

"ودخول البنادقة في معاهدات مع الأتراك (العثمانيين) ونشوب مشاكل داخلية في كل من فرنسا وإسبانيا وتنازلت البندقية عن جزيرة قبرص". (المحامي، 1988: 258)

لتدخل أوروبا في تفهقر شامل، مما جعل العثمانيون يستغلون الفرصة رغم ضعف سلاطينهم ولو استغل الأوروبيين ذلك لعجلوا بالإطاحة بهم، بالإضافة إلى خروج الجزائر العثمانية بسمعة وهيبة وبروز شخصية علج كقائد للأسطول الجزائري، مما زاد في إثراء المدينة ورضى الأهالي.

"لا يوجد صوت لا يستحب أن الفائز في هذه المقاومة المذهلة، لموهبته الحكيمة في القيادة والتفاني المذهل". (Defontin, 1930: 126)

"كان الرياس محبوبين من الشعب فهم الذين يوفرون الثروة والشهرة للجزائر". (وولف، 1986: 108)

وهذا الأسطول الذي نظم حملات ضد سواحل أوروبية منذ 1589، لمعت أسماء في طائفة الرياس من أصل أوروبي مثل مامي قورصوا مامي بولتيانو والذي في عهده،

"طلب ملك فرنسا هنري الرابع من الباب العالي أن ينظم حملة ضد مرسيليا التي تمرّدت عليه، فإذن لهم بحد ما كانت الشواطئ الفرنسية محرمة عليهم". (الميلي، 1966: 139)

تميّزت الفترة الأولى من حكم العثمانيين في الجزائر العثمانية دعم الحدود بدحر المغاربة عن الجهة الغربية، والحفصيين من الشرق، واستتباب الأمن الداخلي، مع تحفّظ الدول الأوروبية اتجاه الجزائر العثمانية.

جذور العلاقات الجزائرية الفرنسية:

جمعت المدن الساحلية للجزائرية علاقات خارجية منذ الأزل، كانت تجارية فقط،

"منذ 1482 دخل لويس في علاقات مع سلطان تونس أبو
عمر عثمان وابنه الذي يحكم بون وبجاية". (Féraud, 1877: 86)

لم تنقطع التجارة الجزائرية مع دول حوض المتوسط رغم الضعف السياسي الذي
ميّز الجزائر وتقاسم الإمارات الحكم بينهم، لكن القبائل واصلت تبادلاتها التجارية مع
الأوروبيين.

"في 1520 مفاوضات بروفانسين تعاقدا مع قبائل الساحل
الجزائري وتحصلوا منهم على أسبقية حرية صيد المرجان من
تبركة إلى بون" (Masson, 1903 : 3)

كما أن بعض الكتابات لم تحدّد بالزمن الفترة الصحيحة لبداية العلاقات بين
الجزائر وفرنسا،

"يُظهر تاريخ العلاقات بين فرنسا وإيالة الجزائر فترة غير
منقطعة لانقطاع ومصالحة، وعليه كان من الصعب معرفة
بدقة لهذا التاريخ" (Grammont, 1879: 3)

لكن سرعان ما كانت توتر العلاقات لتصبح حملة عسكرية أمام مدينة الجزائر
سواء لعقد السلام، أو لتحرير الأسرى والتي أصبحت قضية شائكة فيما بعد بين البلدين
وسبب الحملات الأوروبية الموائية على المدينة غير أن هذه التوترات لم تسجل في بداية
عمر الجزائر العثمانية، وذلك من خلال المراسلات القنصلية للبلاط الفرنسي يرى تجدد
العهود في كل مناسبة تنصيب حاكم جديد أو مناسبة تعاد فيها التأكيد على الصداقة
والتبادل والاحترام.

"باعتبار أن المراسلات الجيدة للجزائر مع فرنسا سوف
يتمسك بها جيّدا، ومعاودة السلام التي قمت بتجديدها ستتقدّم
بدقة" (Plantet, 1889: 8)

مسألة القرصنة والأسرى وانعكاساتها على المشهد السياسي في حوض المتوسط:

تتمحور خطورة التقارب السياسي الذي انتهجته فرنسا اتجاه شريكها العثماني باعتباره القوي في المنطقة في مدى انعكاسه على الدول المسيحية، وكانت أول المتضررين هي البندقية جراء الاتفاق المبرم بين الفرنسيين والعثمانيين.

"بأن الدولة العلية تجعل وجهة حروبها بلاد نابولي، وجزيرة صقلية وإسبانيا عوضا عن النمسا" (المحامي، 1988: 234)

في حين أن فرنسا تتفرغ لمهاجمة إيطاليا بتحقيق حلمها القديم، غير أن عدم قبول البندقية هذا التحالف أدى بها محاصرة من طرف الأسطول العثماني، وربما لم يكن هذا هو السبب الرئيسي لهذا الحصار فطالما كانت البندقية حجرة في طريق العثمانيين.

"طالما بقيت البندقية على الممرات لبحر إيجيه، فسوف تكون دائما تهديدا للعثمانيين" (Standford, 1983: 68)

كما زادت مخاوف الدول الأوروبية بعد تعيين خير الدين على الأسطول العثماني وتمكنه من الهجوم على سواحل المتوسط، فلم يكن لطموحه حدود بفضل حملاته زاد من عدد الأسرى وكونه أسطولا بحريا قويا، وحطم حصن البستيون.

"ثلاثون ألف أسير مسيحي عملوا في الميناء وتحصين المدينة، وكان الوافدون من الأسرى بدون انقطاع حتى أحيانا سكان يرمون في الأسر" (Godard, 1857 : 16)

"جزر البليار 1536م، واجتيازه مضيق جبل طارق والانقضاض على السفن الإسبانية العائدة من العالم الجديد محملة بالغنائم". (بليل، 2011: 8)

"فالأسطول العثماني كان بمثابة الجناح العسكري، فقد كان يحمي جناح فرنسا الجنوبي ضد أي هجوم يشنه أعداءها،

مما أتاح لملوكها تركيز قوتهم في الشمال وتأمين حدود فرنسا". (مصطفى، 1993: 68)

وما زاد من قوة فرنسا وساعد في بروزها وانفرادها في حوض المتوسط خلال القرن السادس عشر هو تلك الامتيازات التي مكنتها في التوغل في أقاليم الخلافة العثمانية، حتى أصبحت تتدخل في الشؤون الداخلية.

"جرى تعيين قنصل فرنسي في موانئ الشام وأعفي التجار الفرنسيون من الخضوع للقانون العثماني وطبق عليهم القانون الفرنسي تحت إشراف ممثل فرنسا في إستانبول ومنح الحرية للتجارة المطلقة في كل موانئ العثمانية". (ياغي، 1996: 68)

أما بخصوص القرصنة سنوجزها في كلمات وردت في أحد الكتابات الأجنبية،

"لم يكن استمرار بقاء الميليشيات في الجزائر إلا بفضل الغنائم التي يتحصلون عليها قراصنتهم من المسيحيين، في حين لهم الوقاحة لقول هذا آفة ورعب" (Labat, 1672: 363)

وهي كما وصفها ميغال دوال موسيال من خلال رياس البحر عند دخولهم من صيد الغنائم فرغم اختلاف أحوالهم إلا أنهم خدموا نفس الهدف وتحت راية الجهاد وجعلوا الجزائر العثمانية عمرها الذهبي وقد كانوا الشخصيات التي دخلت التاريخ.

"لحظة استيلاء على فرقاطة وقد أضاعت وجهتها، أسر السفينة التي كانت لملك إسبانيا العدو التقليدي، دالي مامي القبرصي الأعرج، مراد رياس الإسباني، والقراصنة الآخرين" (Douël, 1930:4)

لم تكن القرصنة تخص العثمانيين والجزائريين فقط، لكن القرصنة الأوروبية عملت تحت اسم المسيحية وكانت السبابة في عالم القرصنة.

"عارضت البندقية لنشاطات القراصنة، لكن لم ترد منع قسم من سفنها التي كانت تتحرك باسم المسيحية" (Standford, 1983: 290)

كما أن كل الكتابات الأجنبية روعت من مسألة القرصنة وخصتها بالجزائر العثمانية والعثمانيين فقط متغاضين على القراصنة الأوروبيين، وكلا الطرفين كان له أسبابه في هذا العمل فالعثمانيون تبنا فكرة الجهاد ودحر المسيحيين على سواحل الجزائر، والانتقام الاضطهاد الدمي في حق مسلمي الأندلس، أما الأوروبيون فالفقر دفع بهم إلى القرصنة في البحار.

"البندقية تكبدت خسائر هائلة من سنة 1621-1638م نفس الفترة التي كانت الدولة العثمانية مشغولة بحربها مع إيران 1618-1648م وأوروبا فيما بعضها". (أوغلي، 2000: 332)

"كما أن القراصنة، معاملتهم كانوا يبيعون ما سلبوه إلى يهود الجزائر وهؤلاء يبيعونها إلى يهود ليفورن الذين يسوقونها إلى أسواق أوروبا". (Masson, 1896: 25)

"وقد نظمت تلك الطلعات لتصبح أسطولا ساعد فرنسا في 1541م بقيادة خير الدين ثم للمرة الثانية في 1553م بقيادة درغوت بك ثم اختلف معهم". (الدغيم، 1994: 399)

وبعد تفرد الجزائر العثمانية بحكمها واصلوا هجوماتهم رغم التعليمات الصادرة من السلطان العثماني، فطائفة الرياس لم تكن تهتم بأمر السلطان عكس الباشاوات والدايات المعينين من طرف الباب العالي، فالغنائم والمحافظة على مداخل الجزائر العثمانية كان هو هدفهم الأول.

"المؤيدة لتذمر القنصل الفرنسي من هجوماتهم، ولكن الرياس لم يمثلوا بل واصلوا هجوماتهم في عرض البحر والشواطئ بروفانس والاستيلاء عليها". (بوعزيز، 1980: 61)

كما أن الجزائر العثمانية لم تسلم من هجمات القراصنة وخاصة كانت تحت قيادة أحد القراصنة العارفين للسواحل الجزائرية جيّدا وهذا الانقلاب هو بسبب هروب سيمون دونسا إلى فرنسا وسميت،

"بقضية سيمون دونسا ومعه مدفعين برونزيين كانت السلطة التركية في الجزائر قد أعارتهما إياه، كما جرت العادة مع القراصنة ليقدمها هدية إلى حاكم بروفانس الفرنسية اعتذارا لهم عن خدمته في الأسطول الجزائري". (عباد، 2007: 112)

نشبت أزمة دولية بينهم ومطالبة الديوان باستردادهم في ظل الرفض الفرنسي ما كلفهم الحرب ضدهم،

"وأخذ البحارة يتعرضون لسفن الفرنسيين في البحر وتضررت التجارة الفرنسية وخسرت أكثر من مليوني جنيه 1610". (بوعزيز، 1980: 62)

"وعليه بدأت سلسلة الحملات على سواحل الجزائر بمشاركة القرصان الهارب الذي كان الأكثر دراية بالسواحل لخبرته مع الأسطول الجزائري". (Grammont, 1889: 13)

"وعليه زادت من نبرة الأوروبيين اتجاه هذا لموقف الجزائري لتعزز كتاباتهم بالقرصنة واللصوصية". (جلال، 1981: 20)

"فقد كانت هذه الطلعات الجزائرية البحرية من الفجر إلى الغروب، الشتاء والربيع، يتجردون انقطاع، متخفية في

الجزر بفضل السفن الخفيفة التي تبحر بدون انقطاع".

(Grammont, 1879: 88)

زادت حدة الهجمات بين كل الأطراف لتنتهي في قرصنة وأسرى لتعقبها اتفاقات وتعهدات وافتداء الأسرى بمعنى زيادة في المداخل مما شجّع على القرصنة والأسر.

ورغم تلك التعهدات لم تمنع من سقوط كلا الطرفين في الأسر ولم يكن حالهم معروف في الطرف الآخر، بالنسبة للجزائريين عكس الأسرى في الجزائر العثمانية التي دعمت بمذكرات الأسرى.

"لا هيئات خبرية معتمدة ولا وكلاء مقيمين بها، لذلك من الصعب التعرف على وضعيتهم في الأسر وكانوا يعتبرون في حكم المفقودين". (قنان، 1987: 254)

ومن المؤسف أن الكتابات لم تذكرهم وخاصة العربية فلم تولي لهم حيزا واسعا كما فعلت الأجنبية التي وصفت الجزائر العثمانية بأبشع الصفات لكسب تعاطف الناس في أوروبا وقد نجحت يكفي أنه أحد أسباب مؤتمر إيكس لاشبال 1816.

"في الجزائر لوحدها ما يقارب خمسة وعشرون ألف أسير فرنسي إسباني وإنجليزي وإيطاليون وحتى من روسيا في الشوط الأول من القرن 17 م فقط". (Pavy, 1857: 338)

أما بخصوص الخسائر كانت حسب تفاوت الفترات عمر الجزائر العثمانية وطبيعة الحكام ومدى سوء الرد العسكري، وتدخل الباب العالي إزاء طرف أو معاقبة حكام الجزائر العثمانية.

"الخسائر الفرنسية بين 1629-1634م بلغت أربعة ملايين وسبعمائة واثنين وخمسين ألف جنيه، كما تمكن الرياس الجزائريون في هذه الفترة من الاستحواذ على ثمانين باخرة فرنسية وألف وثلاثمائة بحار فرنسي أسلم منهم مائة وتسع

وأربعون، فإذا أضفت إلى ذلك المغام المأخوذة من البواخر الأوروبية الأخرى من إنكليزية وهولندية، أمكن بسهولة تصوير ازدهار الأسواق الجزائرية". (الميلي، 1966: 163)

مسألة الأسرى الإنجليز:

يمكن القول أنهم الأسوأ حظا في الأسرى، ولم يكن يطلق سراح بعضهم إلا بفضل جهود التجار، وعائلاتهم التي كانت تتدخل لافتدائهم بصفة شخصية فقط.

"الذين يشترطون عليهم دفع حين عودتهم ولا ينطبق هذا الشرط على الفقراء، أما الملك الإنجليزي برر عدم دفع الفدية بحجة أن إنقاذهم سيقنع البحارة بأن أسرهم مغامرة تجارية رابحة ولا يشجع إلا على النهب". (وولف، 1986: 218)

كما أن العلاقات الطيبة التي جمعت إنجلترا والجزائر العثمانية لم تسجل توترات هذا ما عكسته معاهدة، مما جعل أعدادهم قليلة مقارنة مع أمم أخرى

"1682م بين الداوي بابا حسن والملك البريطاني شارل الثاني إثر توتر العلاقات الجزائرية الفرنسية حيث تم إطلاق سراح الأسرى الجزائريين على الأسطول البريطاني دون المطالبة بالمقابل استرجاع أسرى في الجزائر". (نايت بلقاسم، 1985: 190)

وعليه أصبحت قضية دولية تمس كل الأطراف ولكن للجزائر العثمانية مدخل من الغنائم، ومن مصلحتها أسر عدد كبير للمطالبة بفدية أكبر، رغم معارضة الباب العالي وتعرضهم للعقاب.

"كان تماطل الحكومات في افتداء الأسرى يضع القناصل في محطة الانتقام والتوتر ولم يتحققوا الأمر إلا

لغاية 1692م بالنسبة للقنصل الفرنسي لإيجاد الحل النهائي
لقضية افتداء الأسرى". (قنان، 1994: 51)

كل تلك الاحتجاجات الفرنسية بشأن أسراها لم يكن بالمقابل أي ردود اتجاه الأسرى
المسلمين عندها فلم تذكر كثيرا في الكتابات، غير أن وصف وولف أمكنه إيجاز ذلك.

"الفرنسيين هم اللذين من أخلوا بالمعاهدة أولا ورفضوا إطلاق
سراح الأتراك (العثمانيين) والجزائريين ولا يطلقون سوى
العجزة والطاعنين في السن مدّعين بأن هؤلاء فقط هم الذين
عندهم". (وولف، 1986: 285)

التقارب الفرنسي الجزائري:

لم يتميز التقارب السياسي الفرنسي الجزائري مع بداية الوجود العثماني في الجزائر
بأي مناقشات تذكر، ويمكن إرجاع أصل هذا التحالف في الأساس إلى العمل السياسي
الأخير الذي أنجزه الصدر الأعظم إبراهيم باشا قبل عدة أيام من إعدامه.

"والتي أعدت لها مهمات دبلوماسية مختلفة تسمح بعقد اتفاق
عبر كل الإمبراطورية الامتيازات التي كان التجار الفرنسيون
يتمتعون بها في مصر والشام". (مانتران، 1989: 226)

وحيث أن هذه العلاقات طوال فترة البيلربايات كانت جيدة،

"حيث عمل الرئيس سنان والرئيس طرغوت مع القباطنة
القدماء من الفرنسيين سويا في البحر" (آلتر، 1989: 151)

بالإضافة إلى تزودهم بالمؤنة من الموانئ الفرنسي وأيضاً تزويدهم بالمعلومات
العسكرية في بعض الأحيان، دعم من ثقة الفرنسيين لدى الباب العالي والجزائر العثمانية
بصفة خاصة غير أن هذه المعلومات لم تكن تشمل إلا عدو فرنسا التقليدي وهم الإسبان.

"لتلقى المعلومات والإرشادات التي أنقذتهم من ملاحقة دوريا،
ومن جانب هنري الثاني وشارل التاسع تحذيراتهم في عدة
مرات من التسلح الإسباني ضدهم" (: Grammont, 1887
(53)

ولم يكن هذا التقارب إلا نتيجة الكره والعداء الذي كنه الملك الفرنسي للإمبراطور
الإسباني الذي أهانه عندما سجنه في مدريد وأجبره على توقيع معاهدة مخزية، ما جعله
يتقرب من السلطان العثماني، لتتوج هذه المساعي إلى إرسال الملك في شهر جانفي
1535 لافوري متغيرا دائما،

"إلى القسطنطينية في مهمة مزدوجة، أولها ضمان دعم خير
الدين وأسطوله عندما تهاجم فرنسا، وثانيا حصول على
اتفاق تعاون سياسي واقتصادي لمحاربة الإمبراطور، وقد
عرف بمعاهدة الامتيازات". (بلبل، 2011: 13)

"وكان أول استقبال لسفير فرنسي لدى الأتراك (العثمانيين)
في عام 1531م واستقبل بحفاوة من طرف السلطان سليمان
القانوني، وأخذت العلاقات تنمو بإطراد حتى عام 1534"
(بوعزيز، 1980: 42)

لتصبح فرنسا أكثر تقربا من العثمانيين وتحظى بالتميز على باقي الأمم،

"في عهد سليم الثاني زاد على امتيازات التي تمت في عهد
أبيه بمعاافة كل فرنساوي من دفع الخراج وأن يكون للقناصل
الحق في البحث عن يكون عند العثمانيين في حالة رق
وإطلاق سراحهم ومجازاة من أخذهم" (المحامي، 1988:
(254)

تتبع أهمية هذا التقارب والتعاقب الكبير على الجزائر لموقعها الاستراتيجي وأيضا موانئها التي كانت مزدهرة منذ آلاف السنين فقد كانت محطة تجارية مهمة في البحر المتوسط، وأقوى إيالة وأبرز الشخصيات التي تداولت على حكمها في عصرها الذهبي الأول والتي كانت تحكم بنزعة جهادية إسلامية وتخدم مصالح الجزائر العثمانية العامة.

"فقد عقد حكام فرنسا معاهدة تجارية وملاحة مع ملك بجاية خالد بن زكرياء بالإضافة إلى معاهدات مع المدن الإيطالية وتمكن سكان مرسيليا من إقامة محطات تجارية في المشرق وشمال إفريقيا منذ القرن 12م" (بليل، 2011: 19)

ويكون هذا التقارب هو علة ما سيلحق الجزائر العثمانية في القرون الآتية كما جاء في كتابات أحد الضباط الفرنسيين،

"الفضل يرجع إلى هذا التحالف، سيعكس في بلاد البربر، وأيضا مملكة الأتراك (العثمانيين)، مثل ما كنا نأمل في قيامها أو تحطيمها ثلاثة قرون فيما بعد". (Mercier, 1818: 47)

النتائج المترتبة عن هذا التقارب السياسي:

إن المشهد السياسي الدولي الذي ترتب عن التقارب الفرنسي والعثماني أو حتى بحدوث تحولات تحمل في طياتها تحديات للدول المسيحية في ظل هذا التقرب من العملاق العثماني،

"منذ 1507 في عهد السلطان يزيد تم تعيين قنصل فرنسا بالإسكندرية" (Plantet, 1889: 28)

ولأن تلك المنطقة كانت تحت السلطة العثمانية، وهذا من أجل ضمان حرية وحماية البحار الفرنسيين،

"ثم تلتها معاهدة 1535م لتتوج مساعي سفراء فرنسا بعد مفاوضات طويلة إلى توسيع الامتيازات إلى كامل الأراضي العثمانية بما فيها الجزائر". (بليل، 2011: 21)

ومما لا شك فيه هو طباع الشخصيات الحاكمة في الجزائر العثمانية لعبت منحى ودورا في هذا التقارب بالنسبة للجزائر العثمانية فقد أرجع قرامون هذا الفضل إلى خير الدين.

"بفضله ترجع أول العلاقات حيث أضحى الصديق القديم، واستقبل سفراء، حيث أضحوا لعشر سنين رؤساء الغرب الفرنسي للديوان الأكبر" (Grammont, 1887: 41)

غير أن هذا التوافق اختلف بتعاقب الشخصيات الحاكمة، حيث أن خليفة خير الدين حسن،

"حيث أنه تجاهل طلب الملك الفرنسي لوضع أسطوله تحت تصرفه ضد إسبانيا وربما هذا الرفض راجع إلى أن حسن باشا أدرك بأن القيام بمثل هذه الهجمات لن يعود على الجزائر إلا بالخراب". (آلتر، 1989: 181)

ليكون هذا التصرف بداية كراهية والتآمر عليه ويكون الشغل الشاغل للسفير الفرنسي في إسطنبول وتغلب الحكام عليه وزرع فكرة نية حسن باشا في الانفصال عن الوطن الأم، وخاصة بعد مغادرة حسن باشا إلى إسطنبول ويفسر هايدو في كتاباته أن أصل المسألة مغادرة حسن هي،

"يرجع إلى التقرير الذي بعثه قائده جعفر حول المآمرة التي حيكت ضده من قبل رستم باشا زوج بنت السلطان العثماني من أجل الاستيلاء على ممتلكات خير الدين التي بناها في إسطنبول، مستغلا نفوذ عقد المصاهرة، مهددا له ليس فقط

بالاستيلاء على الحمام وأيضاً عزله من حكم الجزائر، هذه المعلومات أقلقت حسن، ليذهب فوراً إلى القسطنطينية".
(Haëdo, 1881: 81)

ورغم تبديل الحاكم غير أن فرنسا لم تتحصل على أهم مطلب لها، وهو تعيين قنصل في الجزائر العثمانية، وهذا ما يجعل السؤال المطروح لماذا هذا التخوف من التواجد الفرنسي في الجزائر رغم ضمانات الباب العالي لهم.

"ما عدا بعض التقدم الذي أحرزته في شكل فرمان 1535م، أكدا الطرفان حالة السلم والوئام القائم بينهما على مدى حياة العاهلين بالنسبة لجميع الأقاليم التابعة لهما". (قنان، 1987: 36)

وقد عمدت فرنسا لمراسلتها لديوان الجزائر العثمانية على عيونها لنقل الأحداث لتكون السبابة للوقوف بجانبها عما ذكر في أحد رسائلها وعدم تفويت فرصة تهنئة الحكام بنصرهم في 1700م بنصرهم على تونس،

"عرفت عن طريق السيد دوران، النصر الذي حققتموه على باي تونس بإضافة إلى طرابلس، وهزيمة جيشهم، والاحترام الذي يكنه لكم الإمبراطوري والعدل الذي يعرفه راعينا يجعلني لا أفوت تهنئتك لهذه المناسبة العظيمة، وهي بسبب حنكتكم". (Plantet, 1889: 9)

التقارب الإنجليزي العثماني وانعكاساته على الجزائر العثمانية:

كانت إنجلترا كغيرها من الدول تقوم بكل جهودها لكسب المزيد من الامتيازات مع الجزائر العثمانية لمنافسة فرنسا، وأيضاً لتحرر نفسها من العزلة، حيث أنها رمت بكل ثقلها في حوض المتوسط منذ أواخر القرن 16م، إذ تبنت الملكة إليزابيث سياسة التقارب مع الباب العالي في عهد السلطان مواد خان ثالث وتحصلت على امتياز خصوصي،

"لتجار بلادها وهي أن المراكب تحمل العلم الإنجليزي، وكان لا يجوز لها ذلك قبلا فقد كانت السفن باختلاف أجناسها ما عاد البندقية لا تدخل موانئ الدولة إلا تحت العلم الفرنسي". (المحامي، 1988: 260)

"عينت إنجلترا قناصل من الوسط التجاري وأولهم القنصل جون تبتون منذ 1580م يقوم بمهامه كعميل للشركة، ولم يكن بالطبع أي ممثل إنجليزي في الجزائر حيث كان هناك في طرابلس وسوريا والإسكندرية". (Godfrey, 2000: 175)

ولم يكن الشأن بالنسبة لفرنسا التي سبقت كل الأمم وكانت لها الأسبقية والأفضلية،

"وقد كانت كل الأمم تابعة للقنصل الفرنسي، هذا الامتياز الخطير لا يوجد ما يوازيه من ناحية العثمانيين، ومن جانب غير الفرنسيين الحقوق القنصلين وعدم مساوتهم مع الفرنسيين". (قنان، 1987: 41)

كما أن اختيار الممثلين الدبلوماسيين من الوسط التجاري، ليكونوا أكثر حرصا على المصالح التجارية، وعليه طالبت إنجلترا الجزائر العثمانية بإعطائها حق التجارة على كل السواحل مثل فرنسا ولكن لم يتم لها هذا باعتبار أن تعين القناصلة.

"يسيطر عليه الوسط المارسييلي بما فيه وظيفة القناصل في الجزائر وإيالات شمال إفريقيا طرابلس الإسكندرية باعتبارهما أغنى محطة تجارية". (Watbled, 1945: 29)

وبهذه الإجراءات والتميز تمكنت إنجلترا من تسجيل حضورها في حوض البحر الأبيض المتوسط والدخول في المواجهة والتسابق التجاري أمام السيطرة الفرنسية بالمراكز والمحطات التجارية وإن تأخرت بسبب مشاكلها السياسية الداخلية والحدودية مع فرنسا.

"والانفراد بتصدير أهم منتجات التي تمثل النقائص في السوق الأوروبية، وتدعيم حكوماتها في أيام الأزمات، وسيطرتها على البحر وخاصة في حربها مع أمريكا 1812م وانتهاكها المعاهدة". (Benguettaf, 2010: 267)

كما أن هذه الإجراءات التي اتخذتها إنجلترا بحق فرنسا تعتبر داخلية مقارنة مع ما قامت به ضدها من خلال تحالفها مع دول أوروبية أخرى لكسر شوكتها.

"مما دفع وزير خارجية إنجلترا إلى إنشاء التحالف الرباعي هو خوفه من فرنسا أن تجدد الاعتداء من ناحيتها، فاحتاط للأمر بعقد أوامر المخالفة مع الدول الكبرى وتدابير احتلال فرنسا نفسها وقد استمر لغاية 1818م" (عمر، 2000: 41)

موقف الجزائر العثمانية من منح الباب العالي للامتيازات لإنجلترا:

تميز موقف الجزائر العثمانية بالفطور إزاء موافقة الباب العالي لمنح الامتيازات لإنجلترا عكس ما أبدته اتجاه فرنسا، فقد وجه السلطان أوامر إلى نائب الملك الجزائر.

"مرفوعة بنسخ مصادفة من الامتيازات 1584م والتي أوقفت بدعوى إثر إغراق سفينة إنجليزية، ولم ينطبق إلا بعد وصول بارتول في صائفة 1585م". (Godfrey, 2000: 171)

ولعل هذا الموقف زاد من إلحاح التواجد الإنجليزي في الجزائر العثمانية تحت ضغط الباب العالي بغية إزعاج فرنسا، ومنافستها على التجارة في المنطقة، ومن أجل توجيه أنظار شعبها الناقم على السياسة الداخلية، وأيضا طموح إنجلترا لما وراء جبل طارق.

كما يجب علينا أن نستبعد أهم العوامل في هذا التطور السلبي إزاء تقديم وتأخير دولة على أخرى في تداول الزمن مع الشخصيات الحاكمة في الخلافة العثمانية وانعكاسه على القرارات.

"فكون السلاطين من سجناء الأقفاس، وبالتالي يفتقدون أبسط شروط تولي هذا المركز لافتقارهم لنشأة سياسية تولي شؤون الحكم، وأيضا الافتقار لأبسط شروط وحدة الشخصية وتوازنها". (Veinstein, 1989: 166)

جعلهم عديموا البصيرة في الأفق وخلق هذا التواجد المزدوج في الجزائر العثمانية إلى خلق صراع سياسي ليتحول إلى حملات فيما بعد، وفي العموم لم تتمكن إنجلترا من تطبيق بذكاء بنود المعاهدات للامتيازات السابقة.

"بين فرنسا والدولة العثمانية على إمكانية انضمام ملكي إيفوسيا وإنجلترا إلى هذا التعاقد ويكفي لذلك مجرد إخطار السلطان العثماني برسالة". (قنان، 1987: 37)

"كانت مسألة الامتيازات من المكاسب العامة لكل من فرنسا وإنجلترا عكس الدولة العثمانية والذي سوف يتكرس فيما يسمى بالتجانس الأوروبي الذي سوف يتكرس في عام 1815م". (سنو، 1985: 25)

مساهمة القناصل في الصراع:

لم تنشأ جميع الدول الأوروبية نظام إزاء تعاقدتها التجاري مع الخلافة العثمانية.

"ما عاد البندقية التي كانت أول متعامل معها أما فرنسا فقد تأخرت إلا غاية ضمانتها مرسلية 1481م، فقد ظلت في أيديها المحافظة على سلامة تجار لفانت وبقي يحكمها قناصل يقومون بمساعدة البلدية على تدبر جميع أمورها المالية، وكانوا القناصل يُنتخبون كل سنة من أشرف مرسلية". (الصباغ، 1989: 538)

كان لهم الدور الرئيسي في الأحداث، وما نتج عنها، كيف لا ويمكن القول أن سبب احتلال الجزائر الفرنسي هو قنصل فبمجرد:

"حديث دار بين الباشا والقنصل الفرنسي حول رد فرنسا على طلبه، فكان رد القنصل غامضا ولعله كان مهينا لباشا". (أبو قاسم، 1982: 23)

فانتهى بأمره بالخروج من الديوان ليكون سبب المباشر لخطّة محكمة من قبل، وفي هذه المرحلة، كان كل طرف يشد الحبل لجانبه فسارعت فرنسا إلى تطويق الجزائر العثمانية هي تلك الأسبقية في معاهدة الامتيازات بحكم الأقدمية، وتكررت في كل خطاباتهم مع الجزائر العثمانية.

"إن القنصل المعني يكون له حق السبق على غيره من القناصل". (قنان، 1987: 298)

وكانت هذه الأسبقية هي سبب نشوب مشاكل في أغلب الأحيان تنتهي بحملة أمام أبواب الجزائر العثمانية وخاصة تمسكها بتطبيق ما لزم به الأمر لخدمة مصالحها.

"البند المخصص من المعاهدات حول تحية السفن كبند سابع والعشرين لمعاهدة 17 سبتمبر 1789". (بليل، 2011: 26)

القنصليات الأوروبية في الجزائر العثمانية وسبب ظهورها:

يمكن إرجاع أساس هذه القنصليات الأجنبية سواء بالجزائر أو باقي الأقاليم التابعة للدولة العثمانية إلى طبيعة العلاقات الخارجية التي جمعت الطرفين، وبطبيعة الحال تعود أصول هذه القنصليات إلى التجارة الخارجية، فقد كانت بأيدي أجنبية منذ عدة قرون.

"وهذه التجارة وضعت في أيدي الجاليات التي حطت رحالها في مختلف المدن والموانئ العربية، وكانوا هؤلاء يعيشون في خانات تحت إشراف قناصلهم". (بيضون، 1991: 67)

بالإضافة إلى أن المبادلات التجارية كانت تتم بعد عدة إجراءات أهمها:

"تعيين القضاة القناصل أو القناصل التجار أو القناصل
البحار الذين يرافقون السفن التجارية الأوروبية". (Watbled, 1945: 20)

وكانوا القناصل يختارون من أهم العائلات الممارسة للتجارة أو السمسرة فأضحت
هذه الوظيفة حكرا على طبقة معينة من الأشراف، دون السماح لأفراد من العامة الولوج
لهذه الوظيفة لأهميتها باعتبار القنصل الممثل الشخصي لبلده وإمبراطوره.

"صفقة بيع وشراء منذ 1257م، والتي تمارس عن طريق
الوساطة أو دفع للزمة" (بليل، 2011: 20).

كما أن هذه الأسبقية كانت من حظ فرنسا، باعتبار لاتفاق المبرم بينه وبين
السلطان العثماني، الذي تمثل لأمره معظم الأقاليم والموانئ العربية.

"الوحيدة في كل الأمم المسيحية، فرنسا عانت القليل من هذه
الوضع، منذ اليوم الذي وجد فرنسا الأول مضطر للبحث
عن تحالف تركي ليجد لنفسه نقطة قوة ضد خصمه".
(Grammont, 1879: 5)

وعليه يمكن اختزال بعض الفرضيات حول حقيقة الصداقة الفرنسية العثمانية، فيما
جاء في بعض الكتابات الأجنبية، فأصلها كان قوامه المصلحة المتبادلة بين الطرفين في
المنطقة التي تكالبت القوى المسيحية الأخرى للهيمنة عليها، أما من جانب العثماني لتنفيذ
مخططاته ضد المجر.

"وعليه ضمنت فرنسا لنفسها طول القرون التالية مركزا ممتازا
بين الدول الكبرى في كل ما يتصل بالسياسة الشرقية".
(العسلي، 1980: 40)

وهذا أدى إلى توطيد العلاقة الثنائية لتصبح رسمية على شكل ممثلين لها في الأقاليم العثمانية وإعطائها صلاحيات نافذة بعدما كانت علاقة تجارية خارجية دون أي تمثيل رسمي في الجزائر، وذلك من خلال تجارة صيد المرجان في سواحلها الشرقية قبل تواجد العثمانيين.

"منذ سنة 1478 والمعترف بها في عهد سليم الأول في 1518، والموثقة تحت المادة 12 في معاهدة الامتيازات لسنة 1535". (Plantet, 1889: 21)

ومع الأسف استعملت فرنسا هذا الحق لاحقا لأغراض استعمارية سهلت عليها البقاء بذريعة حماية تجارتها وتجارها، وكانت هذه الورقة التي ما طالت أن تكون السبب المباشر في كل الحملات.

- ومن أهم بنود هذه الامتيازات هو:

"حرية الإبحار لرعايا كل من البلدين وعلى عدم تفتيش مراكب بعضها البعض عند التقائها في البحر، وحضور مترجم القنصلية في تسوية المنازعات التي قد تنشأ بين الرعايا الفرنسيين والعثمانيين التي وكل الفصل فيها للقضاة العثمانيين". (قنان، 1987: 36).

ومع كل هذا الامتياز والتقرب لم يتمكن الفرنسيون من تثبيت قنصلهم في الجزائر عكس الأخرى وذلك راجع لطبيعة الحكام وحساسيتهم ضد المسيحيين وسياسة الحذر التي انتهجوها إزاء الحضور الأجنبي لديهم ما عدا الأسرى باعتبارهم من مداخل الجزائر العثمانية.

"الأقاليم الأخرى إلا بعد حصولهم على فرمان من السلطان اعتبارا من 1577م وحتى ذلك التاريخ لم يكن لأي حكومة تمثيل قنصلي قبل هذا التاريخ" (آلتر، 1989: 151).

الصعوبات التي صادفت فرنسا للاستقرار في الجزائر:

شكلت الحالة السياسية الجزائرية العثمانية ومجموع الثورات التي اندلعت في الداخل أرضية خصبة لكل التطورات على التجارة الأوربية لتأثرها بها، وأهم التجارة هي صيد المرجان وحصن الباستيون الذي كان أول ما يتضرر في الحالات المستجدة.

"ومع سنة 1482 عبر الملك الفرنسي رغبته للسلطان التونسي الذي يحكم مقاطعة بون وبجاية لتطوير هذه العلاقة المتجدرة من عهد الملك الأسبق". (Féraud, 1877: 86)

غير أن الأمور آلت إلى الحروب بين الإخوة بربروس والمسيحيين والتي كانت قاعدتهم بجزيرة تونسية مما أثر على صيد المرجان والبحرية، ما دفع القنصل الفرنسي بالقاهرة بالتدخل لدى الباب العالي ليثمر تدخله يعقد اتفاق الامتياز.

"وفعلا أول قنصل في الجزائر كان بارتمول من مرسيليا معين من شارل الرابع في 15 سبتمبر 1564". (Masson, 1930: 55)

ولكنه لم يتمكن من الالتحاق بمنصبه" وتذكر المصادر الأجنبية أن هذا الرفض:

"راجع إلى طبيعة الجزائريين الراضية لقبول بينهم شاهد على أعمال قرصنتهم. لتستأنف المفاوضات من طرف فرنسا دنوا" (Plantet, 1889: 1).

لم تفشل فرنسا في محاولاتها لتتبع بمحاولة أخرى من خلال رسالة موجهة للسلطان العثماني من خلال شخص سفيرها في البلاط العثماني وإلحاحه في كل مناسبة بضريعة تسيير أمور فرنسا بشكل مباشر في الجزائر العثمانية.

"في 12 فيفري 1578م للملك هنري الثالث لتعيين صوروون حيث سوف يتم إبعاده أيام قليلة بعد تنصيبه". (Develeux, 1872: 357)

توالى بعد ذلك عدة تعيينات لشخصيات:

"ليخلفه بيونو رجل دين مرسيليا، مهتما بافتداء الأسرى سجن بعد عدة شكاوى بحقه ليترك منصبه في 1587، في الأخير يتم قبول جاك دي فيا مستشار الدولة لكاترين دي ميدشي في 28 مارس 1588". (Plantet, 1889: 3)

زاول القنصل الأخير عمله وسط أجواء مشحونة بالرفض وعدم الارتياح لهذا التواجد. كما كانت المنافسة على أشدها من أجل الحصول على منصب القنصل في غرب الجزائر من خلال تلك المساعي التي باءت بالفشل في حضور الإسبان تارة وتدخل الإنجليز تارة أخرى وعدم حصولهم على هذا الامتياز، زاد من حدة التوترات بين فرنسا وإنجلترا

"العوائق التي صادفها الفرنسيون بوهران عندما أرادوا إنشاء القنصلية في الفترة 1704م". (Pestmaldjogieu, 1942:)
(221)

باعتبار المدينة كانت تحت الاحتلال الإسباني غير أنها تصادفت مع تحرير الأول بوهران 1708م، حيث قامت عدة تغييرات وبعض الانعراج بخصوص تواجد قنصليات بغرب الجزائر العثمانية، ولعل هذا التصرف هو تأمين جهات أوروبية على حساب إسبانيا العدو التقليدي.

"تحصلت بريطانيا على امتياز ممارسة تصدير الحبوب من وهران نحو قواعدها بالحوض الغربي المتوسط". (بليل،
(2011: 26)

وكان الرفض من خلال أحد الرسائل القنصلية إلى الحكومة الفرنسية وتحذيرهم من التوجه إلى وهران موضحا:

"رفض "الداي" تجارة الفرنسيين بوهران، لكن إذا اضطرت الظروف والعواصف المعاكسة للسفن أو مطاردة الأعداء على اللجوء إلى هذا الميناء فوجدوا الملجأ الضامن".
(Grammont, 1890: 119)

وبهذا لم تتمكن فرنسا من إقامة نيابة قنصلية بوهران إلا إلى غاية توقيع على معاهدة 1719 لتكون تابعة القنصلية العامة بالجزائر، لتكون فرنسا هذه المرة متأخرة في تواجدها بغرب الجزائر العثمانية مقارنة مع غنيمتها إنجلترا التي حظيت بدعم الحكام.

"ويرجع هذا التأخر في هذه المنطقة إلى الدسائس والمآمرات القنصل الإنجليزي". (Lespes, 1938: 324)

كما أن الفرنسيين برزوا كسياسيين ودبلوماسيين محنكين في عدة مناسبات، ولعل ما قام:

"به سفير فرنسا عندما طلبت فرنسا النمسا الصلح بواسطة فلنوف سفير فرنسا للصدر الأعظم سنة 1739م، عندما انتصرت جيوش النمسا التي أغارت على بلاد البوسنة والصرب". (المحامي، 1988: 322)

وبفضل هذه السياسات زاد تقرب فرنسا من الباب العالي لتزيد مطالبهم وامتيازاتهم، وتصادف هذه الفترة عهد السلطان محمود الأول والذي صادف فترة حكم علي باشا بوصباغ في الجزائر العثمانية التي شهدت بدورها في أواخر عهد هذا السلطان بعض الاضطرابات.

"سنة 1763م باعتداء الفرنسيون على سفن جزائرية كانت ببيع بعض المرافئ الفرنسية، ليأمر علي باشا بوصباغ كامل الفرنسيين ومنهم القنصل في السجن". (الزهار، 1980: 18)

وعليه يمكن الملاحظة أن كلما قويت شوكة الفرنسيين من خلال تقربهم إلى الباب العالي، وسياسته تمرير المصلحة، كسبت المزيد من الحضور لدى البلاط العثماني، لتقوم بابتزاز الجزائريين ضاربة عرض الحائط القوانين والحكام الفعليين للجزائر العثمانية.

التجارة الخارجية وعلاقة القنصليات بها:

أفضل وسيلة لحماية مصالحها في سواحل الجزائر العثمانية كان من خلال العمليات التجارية وتمرير مصالحها الاقتصادية على أية أهداف أخرى منها محاولتهم حتى بإصلاح الأوضاع أو الاكتراث لمنطق السياسة والمعاملة مع الحكام العثمانيين بالجزائر العثمانية وهذا:

"ما ورد في قانون "01 جانفي 1722 حق امتلاك الحقوق القنصلية من طرف الغرفة التجارية لمرسيليا وعلى عاتقها كل المصاريف العادية والغير عادية للقنصلية".
(Grammont, 1889: 165)

وعليه ركزت الغرفة التجارية كل طموحاتها في رفع الرقم التجاري على حساب أهمية التوثيق الدبلوماسي فقد كانت هذه الغرفة التجارية المرجع لكل الحكومات المتعاقبة.

"الكل فقد فهم لا يوجد نجاح ممكن بدون التدخل الفعال للمرسلين، ويتوجهون دائما للغرفة التجارية من أجل مطالعة الوثائق". (Julien, 1919: 19)

كما أن المناوشات التي أُلقت بظلالها على الصلاحيات المتفق عليها بين الطرفين إضافة إلى مسألة تعيين القناصل التي كانت تتم بتعاوض عن أهمية الحنكة السياسية والدبلوماسية التي من المفروض أن يتحلى بها الممثل القنصلي، خاصة في ظل تلك المتغيرات والتطورات التي لم يلبث يوم إلا وسجل التاريخ مصادمات ومشاحنات في أغلب الأحيان إلى القطيعة وتشن الحملات العسكرية.

"القنصلية التي أصبحت تحت إدارة المستشار الأسبق
مركاندي، غير أنّ روح الخداع التي تميز بها قاداته إلى
أعمال تحايل، استطاع خليفته السيد روني إصلاح صداقة
الداي شعبان، وال حافظه عليها في هذا الوقت الصعب"
(Grammont, 1890: 4)

إلى جانب قلة المرتبات وتحريم التجارة عن القناصل حسب القانون زاد من بؤس
القناصل والتجائهم إلى الطرق الملتوية بقصد تحسين وضعيتهم وتأمين مستلزمات البيت
القنصلي الذي كان ملاذ كل الأجانب.

"استمر تذمر القناصل من مختلف المحطات وبالأخص
الجزائر حول أجورهم، لا سيما أنهم منعوا من ممارسة أي
نشاط تجاري، إنهم بؤساء وبؤسهم هذا هم يشوب الأمة،
والعلاوات لا تفي بحاجياتهم". (بليل، 2011: 51)

أما الجانب التنافسي فقد كان الهاجس الأول بين فرنسا وإنجلترا ونلمس هذا في
إحدى الرسائل الموجهة للقنصل في البلاط الفرنسي إثر حوادث وقعت في البحر وهروب
السفن الفرنسية من الجزائرية.

"نطلب من الملك إخطار كل القباطنة للسفن الحربية عدم
ارتكاب نفس الأخطاء، مع العلم إمبراطوركم يعلم أن هذه
التصرفات لا تعكس الصداقة، مع أمر السفن التجارية بعدم
الهروب أمام سفننا لأننا نقسم أننا تجمعنا الصداقة لا يشتكى
منها الملك". (Plantet, 1889: 13)

وقد اغتنم الفرنسيون هذه الحوادث لتصليح الوضع عن طريق هدايا ليستغل
الوضع القنصل الفرصة ويحبك المآمرات ضد نظيره الإنجليزي من خلال تقلب الحكام
عليهم وغالبا ما كانت تأتي بثمارها لتتقلب الأمور على الإنجليز.

"الهدايا المطلوبة من القنصل وصلت ميناء الجزائر ووزع،
ليستغل القنصل الوضع ويحرض الجزائريين ضد الإنجليز،
كما منع توقيع اتفاق مع الهولنديين". (Plantet, 1889: 13)

تأثير القنصليات وتأثرها بالأحداث:

مع تطور الأحداث وإعادة النظر في الكفاءات القنصلية، وضعف رجال الدين وعدم فعاليتهم السياسية الخارجية، وفي خضم الأحداث الداخلية لفرنسا، وتراجع شعبيته الكاثوليك أمام البروتستانت وتغلغل هؤلاء داخل الطبقة الحاكمة كمذهب لهم.

"ينتزع حق استغلال القنصلية من الإزاريين لصالح الوسط
التجاري من جديد، إذ يلحق كولبر قنصليات المشرق بالتاج
الفرنسي في 1669 باستثناء قنصلية الجزائر إلى غاية
1683". (Plantet, 1889: 45)

"أي إلى مقتل لوفاشي فقد عمل كولبر على التخلص من
تأثير الكنيسة الكاثوليكية على سياسة فرنسا الخارجية،
فحاول ضمان الأفضلية في النصيب والحقوق في كل من
الملاحة والتجارة الدولية". (Julien, 1978: 287)

"فعمل على تأسيس شركات فرنسية على النمط الإنجليزي
والهولندي 1646-1670، فسوء تسير رجال الدين لشؤون
القنصلية جعلهم يتصرفون في أموال الافتداء وإنفاقها في
غير مجالها". (بليل، 2011: 42)

"وعليه تم اتخاذ بعض القرارات التي استحدثت وهي ضرورة
الالتزام بها "إلحاق أطفال اللغة بالقنصليات كمتترجمين".
(Grammont, 1889: 165)

لغاية مهمة جدا للصالح الفرنسي وهي إتقان اللغة التركية للإحاطة بكل الأمور السياسية والتجارية بالإضافة إلى عدم الاستقرار في فترة الأزرين ما فتح المنافسة لدولة منافسة لفرنسا تتمكن من التقرب من الجزائر العثمانية على حساب فرنسا مما أوجع الغضب لدى فرنسا ودفعها لانتهاج سياسة عدائية فتحت بذلك على نفسها عداء ضد الجزائر وذلك من خلال تعاقب عدة حملات عسكرية.

"موانئ القل 1663، الجزائر 1664، جيجل 1665 ونفس السنة أين أخذ بوفور تأثره بإغراق وحرق لسفن الجزائريين، أولاً بالقرب من تونس ثم شرشال". (Féraud, 1877: 170)

كما استغلت هولندا هذا التوتر الفرنسي الجزائري، لتوجه بدورها حملات عسكرية وقد فشلت في مفاوضاتها:

"ضد الإيالة (الجزائر العثمانية) في سنة 1622م، 1623م، 1624م و1662م فقد كانت الجزائر محطة انتباه وجذب كل الدول الأوروبية ويتضح ذلك في كثرة الحملات للضغط عليها وعقد المزيد من المعاهدات". (بوعزيز، 1974: 18)

وهذا التطور دليل على فشل الحنكة السياسية والدبلوماسية لمبعوثي هذه الدول وافتقارهم للدهاء السياسي، ولحسن حظ هذه الدول التفاوت في شخصية السلطان من تسامح أو نقمة، وانشغالهم بالآزمات الداخلية وخاصة انقلابات الانكشاريين التي كانت تهدد السلطان العثماني، حتى أن هذا التهديد طال الجزائر العثمانية وشهدت عدة اغتيالات.

"وهذا وازدادت في عهد السلطان أحمد الأول العلاقات السياسية مع دول الإفرنج فجددت مع فرنسا العقود والعهود القديمة في 1604م مع بعض الزيادات الطفيفة". (المحامي، 1988: 274)

ولم تكن هذه المبادرة الوحيدة، بما أن سلفه السلطان مراد الثالث يفضل صديقه الفرنسي على كافة ملوك أوروبا، ولكي يترك ذكرى حسنة لديه.

"أصدر أمرا إلى أمراء الغرب وجميع الممالك التابعة لها، بإطلاق سراح جميع الأسرى الفرنسيين وإعادة جميع الأموال والسفن التي أخذت منهم". (آلتر، 1989: 260)

غير أن الوضع تأزم في عهد السلطان مصطفى خان الأول:

"حيث أقدم على حجز كل السفارة الفرنسية في السجن عقب حادثة أن كاتم أسرار السفارة الفرنسية ساعد أحد أشرف بولونيا وكان مسجوناً بالأستانة على الهروب منها" (المحامي، 1988: 176)

لتلوح حرباً بين الدولة وفرنسا في الأفق مما يجعل الجزائر العثمانية اتخاذ موقف حيالها بسبب ارتباطها بالخلافة العثمانية، ليكون أي تصرف طائش من الجانب الفرنسي اتجاه الخلافة ينعكس على الجزائر العثمانية، وهذا المد والجزر في طبيعة العلاقات وتفاوتها بين الحكام وشخصيات القناصل تنعكس في المراسلات الدبلوماسية الجزائرية ولهجتها بعدم ارتياحها في طبيعة ولشخصيات القناصل الموفدة للجزائر العثمانية كان السبب الرئيسي في تدمير حكام الجزائر العثمانية إزاء موفدي فرنسا.

"وكانت ترى في هذا الاختيار عناصر للتوتر وعدم الاستقرار للعلاقات السلمية بين الدول بسبب تداخل المصالح الشخصية لهؤلاء التجار مع مصلحة الدولة". (قنان، 1987: 215)

ولطالما كان هذا السبب وراء مجمل القطيعات السياسية، وسبب نشوب الحروب ومعها تعددت البدائل في الأسباب حول هذا التسابق التجاري والدبلوماسي نحو البلاط

العثماني لينعكس على الأقاليم التابعة له هو التدخل في الأمور الداخلية. في هذا السياق أولت الغرفة التجارية الأهمية للمعاملات وتقدمها:

"من خلال تقديم الهدايا لمسؤولي الإيالة (الجزائر العثمانية) في كل مناسبة وذلك ما يرد في وثائق القنصلية بالجزائر".
(Develeux, 1853: 124)

كما أن حصن الباستيون كان هو المحطة الأكثر أهمية على سواحل الجزائر العثمانية ولطالما شكل نقطة صراع الدول عليه ومن أجل الاحتفاظ به، وإثبات حسن النية أرسلت فرنسا في:

"في سنة 1628 مع ثلاثة سفن محملة بالهدايا والأسرى المسلمين وتوزيع خمسين ألف جنيه على العناصر المتمكنة في الإيالة (الجزائر العثمانية)". (Cat, 1889: 282)

ولتوثيق هذا الأمر تمكن الفرنسيون بدعائهم الاحتفاظ به، ويتضح ذلك من خلال رسالة موجهة إلى القائد صورون موريس أن يكون:

"تحت تصرف قنصل الجزائر، ليقوم بحقوقه في الشركة صيد المرجان القديمة والجديدة سواء للصيد أو لمهام أخرى لمنع استقرار الجنوبيين في القالة". (Féraud, 1877: 99)

رغم كل الجهود التي تخللت المعاللات القنصلية وحسن اختيار الممثلين المحنكين فيما بعد، غير أن تداول شخصيات حاكمة على الجزائر العثمانية أعطى متغيرات في القرارات الصادرة بحق القناصل كما حدث عند:

"إبرام وإمضاء باشا الجزائر اتفاق 1628 حيث أنه أعلن "معاقبة بالموت لكل ريس يقوم بأعمال معادية ضد العمارات الفرنسية، غير أنه لم يكن بالقوة اللازمة ليطبق، فسرعان ما عادت أعمال الشغب بعد ذلك". (Primaudaie, 1861: 28)

ورغم كل الاتفاقات والتدخلات القنصلية لحماية الباسنيين وغيره من المحطات التجارية فغالبا ما كان أثناء حوادث الثورة، تهمل المصالح وتكون أول مكان يحظى بالتخريب مثل ما قام به مصطفى عند رواج الإشاعات القائلة:

"بأن الفوضى تهز أركان فرنسا، فاستولى على كل ما كان موجودا في مؤسسات الشركة الإفريقية وجرأته قد دفعت به أن بسجن قنصل وأسر المواطنين الفرنسيين". (دوفال، 1972: 31)

كما تجلّت الحنكة السياسية لدى التجار الدبلوماسيين حتى في خضم الأحداث لم يتراجعوا ولم يسمحوا بالتواجد الإنجليزي دون تواجدهم أيضا واستعمل القناصل كل الحلول من الهدايا، ومآمرات للوصول إلى هدفهم.

"بفضل أحد التجار من اللقدوق وإقامة بيت تجاري بوهران في 1723". (Lespes, 1938: 565)

ليتمخض عن هذا الاتفاق معاملات تصدير القمح والتي ساعدت في اقتصاد فرنسا وتخفيض الضغط على الحكومة، وتكون بذلك نتائج إصرار قناصل عملوا لمصلحة فرنسا ويمكن القول أنه بفضلهم أصبح لفرنسا مكان في الجزائر العثمانية وساعدوا في اقتصاد فرنسا خاصة في الأزمات، الفقر والجوع اللذان ضربا فرنسا.

"وسمح لهم الباي بتصدير الحبوب بكميات كبيرة من القمح باتجاه مرسيليا". (بليل، 2011: 27)

لم يختص هذا التحرك الدبلوماسي فرنسا فقط، فقد قامت بلاد الأراضي المنخفضة بإرسال دبلوماسي هولندي كسفير لها في الجزائر العثمانية وتونس من أجل إبرام اتفاقيات السلام ذكرت مصادرهم بعض التقارير حول الوضعية في الجزائر العثمانية بعنوان:

"الأفعال الفضيعة والبربرية المربكة وخاصة في ظل تواجد
ألفين سجين من رعايا بلاد الأراضى المنخفضة". (Zeghari, 2004: 211)

أما من الجانب الإنجليزي فلم يكن بنفس الحضور والكثافة، لكن لم يتوقف
طموحها واستعمالها لكل فرصة من خلال تقديم خدماتها للدايات حتى تكسب ودهم،
ولتقرض وجودها في الجزائر العثمانية وإن كان لفترة متأخرة مقارنة مع فرنسا، وذلك ما
نلمسه في إحدى الرسائل الموجهة إلى:

"الداي بلحاج على سنة 1812م، يؤكد فيها استمرار عرى
الصدقة بين البلبيين فإن الإنجليز سوف تحمي الجزائر من
أي خطر يهدد أمنها". (شالير، 1982: 140)

بالإضافة إلى سياسة التهنئة التي استمالت شخصيات الحاكمة للجزائر العثمانية
من الجانب الفرنسي والتي كانت تعد إهانة في حق الباشا أو الداي الذي يتم تنصيبه إذا
لم يتم تهنئته.

"تلقينا بالكثير من الارتياح خبر اعتلائكم لشرف داي
الجزائر، وطريقكم في تبليغنا لهذا الحدث بشخصكم كانت
لنا مشرفة وما أقنعنا بجديتكم في إبقاء على علاقاتنا".
(Vayssette, 1860: 133)

وكانت لهذه الرسائل وقع في الديوان لتحافظ على مركزها المتقدم مقارنة مع
إنجلترا، غير أن هذا لم يردع حالة ثورة الأهالي ضدهم مهما كانت قرابتها مع الحكام،
كما كان الوضع عندما تم تنصيب المستشار الفرنسي القنصلي سيد جرمان من خلال
أحد التقارير الموجهة للحكومة الفرنسية:

"سنة 1686م تم حرق الأرشيف الفرنسي في القنصلية
الفرنسية من طرف الجزائريين". (Develeux, 1871: 115)

"في خضم هذه التوترات، أصبحت شؤون القنصليات من اختصاص كتابة الدولة البحرية حسب مرسوم جويلية 1766م لتحسن الظروف ووضعية القناصل في الإيالة (الجزائر العثمانية) لا سيما في فترة الداوي محمد بن عثمان باشا". (بليل، 2011: 43)

كما أن هذه الفترة شهدت تطورا مذهلا حيث أن هذه الإجراءات التي اتخذها أحد القناصل الوافدين إلى الجزائر أساس الذي يسير عليه خلفه من القناصل وتكون النقطة الأهم في استخدامه الفعلي للتقرب وفرض النفس في الجزائر العثمانية وخاصة مع تفاوت طبيعة الحكام. ومن الوجوه البارزة التي لعبت دورا في هذا التميز هو سانت أندريه القنصل الفرنسي والذي قال في أحد تقاريره:

"وجدت عند قدومي هنا بالجزائر، فرنسا راكعة وسأعمل على جعلها واقفة". (بليل، 2011: 45)

وشخصيته المميزة جعلته يتجاوز نطاق أنماط استخدام صلاحيته المذكورة في الاتفاقيات لتتحول إلى نوعية أخرى من الاستخدامات السياسية باستعراض القوة والمساومة من خلال إقناع سلطات الجزائر العثمانية بإعادة السماح للتجار الفرنسيين بتصدير الحبوب إلى فرنسا، وإعادة النظر في المعاهدات السابقة.

"وأهم قضية اهتم بها مسألة السفن المحايدة التي سمحت فرنسا لنفسها بالاستيلاء عليها ويعد ذلك خرقا وانتهاك لقانون البحار". (قنان، 1987: 70)

قوبل هذا التعرض بغلق الجزائر العثمانية موانئها في وجه القراصنة الذين استولوا على سفن الدول المحايدة غير أن فرنسا اعتبرته انحياز للإنجليز؛ أما في الحقيقة يعتبر هذا التصرف تدخلا في الشؤون الداخلية للجزائر العثمانية باعتبار هذا الرفض هو تشكيك في إدارة الحكام وعدم احترام فرنسا للعلاقات الدولية.

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

- 1- العوامل الجاذبة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر.
- 2- أسباب ظهور الصراع الخارجي بين فرنسا وإنجلترا.
- 3- طبيعة الصراع وانعكاساته على الأحداث في الجزائر.

العوامل الجاذبة للصراع الفرنسي الإنجليزي:

إن الخيار لإبقاء الجزائر العثمانية قوية في البحر، لتهيمن على الأمور لصالحها فرض اعتبارات اقتصادية وسياسية كان من العوامل الجاذبة للصراع الفرنسي الإنجليزي في المنطقة، فخروج الجزائر العثمانية عن طوق الدولة العثمانية ليصبح شكل اسمي دون كونه رسمي، ليكون الخيار لهم على أساس القاعدة مصادقة الجزائر.

"بالرغم من أن هجوماتها البحرية قد أغضبت الحكام الأوروبيين لأن مثل هذه الصداقة كان يمكن استعمالها لصالح إنجلترا ضد فرنسا أو العكس". (سينسر، 1880: 142)

وعلى سبيل المثال عندما تحصل انجليز على امتياز جديد سوف يكون يفتز فرنسا، وسوف يزيد من المنافسة والحزرات بينهما لتشهد الجزائر العثمانية مشاحنات جديدة.

"خصم معتبر على حقوق الدخول، ليدفعوا سوى خمسة بالمئة، ليجبر الفرنسيون فيما بعد مع سنة 1718م الإيالة (الجزائر العثمانية) بمنحهم نفس الخصم". (Rozet et Carette, 1850: 295)

وكان نفس الإلحاح وفرض في الوجود عندما ألح الإنجليز في طلب رخصة التأسيس لمركزيين تجاريين في كل من القالة وسطورة ولكن سكان المنطقة عزفوا عن التعامل معهم.

"ليتم نقلهم إلى العاصمة تحت اسم الشركة التركية التي مارست تجارة بيع الأسلحة والذخائر رغم الدول الكاثوليكية التي كانت تحرم ذلك". (بوعزيز، 1980: 66)

"كما أن الهولنديون حذو حذوهم ولم يراعوا قوانين الكنيسة فباعوا للجزائر، البواخر، الأسلحة "وذخائر الحرب واشتروا الزيوت والحبوب والأصواف". (Grammont, 1889:159)

وأهم عامل شجع تهاافت كل من فرنسا وإنجلترا لهذا التسابق نحو الجزائر العثمانية هو أن الإيالة كان لها مطلق التصرف في إعلان الحرب أو الإبقاء على حالة السلم دون استشارة الديوان الباب العالي.

ولكن رغم الإلحاح من الجانب الإنجليزي لم تتمكن من أن تكون حاضرة في نفس الفترة التي عرفت:

"حضور مكثف لفرنسا بسبب كثرة الأزمات الداخلية ومع التاج الملكي، ولولا الدور الهام الذي لعبه تبتيون وتمكنه من إثبات الحقوق القنصلية على البضائع الإنجليزية والتي يجب دفعها إلى موظف سامي يعرف بقاضي المسيحيين". (Morgan, 1979: 580)

ومع تثبيت كل طرف لحقوقه القنصلية التجارية ضمن لنفسه الحق في الجزائر العثمانية، كما أن إنجلترا قد ضمنت لنفسها مكان في الجزائر العثمانية رغم تقلب فرنسا الحكام ضدها.

"التزمت بحقها في المعاهدة التي يرجع الفضل الأول سفير لدى الباب العالي في 1578م وإلحاحه الشديد ليحصل من السلطان مراد على رسالة إلى الملكة إليزابيث تعطي بلدها المزيد من الامتيازات لتعطي حق احتكار التجارة في 1581م في أراضي السلطان وكانت بداية شركة الليفانت وبقيت حتى 1825م". (بليل، 2011: 210)

أسباب ظهور الصراع بين فرنسا وإنجلترا على الجزائر:

على ضوء الأحداث التي مرت وشهدتها الجزائر العثمانية، يرجع احتمالية الأسباب إلى الدور الهام الذي لعبه القناصل والتجار الفرنسيين والإنجليز في متابعة الأحداث ومواكبتها ونقلها إلى حكومتهم، بالإضافة إلى العيون المزروعة في البلاط العثماني لربط الأحداث ولعل أهم حدث أبرز بداية ضعف الدولة العثمانية والذي استغلته كل الأطراف.

"معاهدة كارلوفتر السلمية التي أمضتها الدولة العثمانية مع النمسا والبندقية وبولونيا سنة 1699، ومعاهدة استنبول في السنة التالية مع روسيا، التي ألزمت لأول مرة التخلي عن قسم من أراضيها، لم تكن قادرة في هذا العهد على ربط أوجقات الغرب بشكل قوي". (أرجمنت، 1970: 26)

ولن ينتهي تراجع الدولة العثمانية وظهور بوادر الانهيار خلال الفترات التالية، خاصة بعد ظهور روسيا كقوة في المنطقة، أرجحت كفة الموازين في نظرية التوازن الدولي،

"بالنسبة للدولة العثمانية، انتصرت روسيا في حربها الطويلة 1768م-1772م وأرغمت السلطان العثماني على عقد معاهدة كوجك فينارجي 1774م التي تمثل نهاية قوة الدولة العثمانية". (البطريق والنوار، 1971: 259)

وبترابط الأحداث الخارجية والداخلية ببعضها تسجل أيضا من الأسباب ضعف شخصيات السلاطين المتعاقبة والتي لم تحذوا حذو سلفها، حتى الصدر الأعظم أصبح رتبة بلا وقار وحزم، كما عهدته الشخصيات السابقة والتي ساهمت في الفتوحات وتدبر السياسة الخارجية لحنكتها ودهائها السياسي للدولة العثمانية والتي ساهمت في الفتوحات وهيبة الدولة.

"فسارت الحكومة ألعية في أيدي الانكشارية ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم وارتكبوا أنواع المظالم وكان

السلطان عثمان شهيد الانكشارية". (المحامي، 1988: 279)

كانت كل الدول الأوروبية تتطلع عن طريق جواسيسها في البلاط العثماني لتلك المستجدات، ولتشهد الجزائر العثمانية بدورها على فترات متقطعة نفس المشهد السياسي للخطر الانكشاري كما جاء وصفه في كتابات:

"عندما انتشرت إشاعات عن نية السلطان عثمان 1618م- 1622م في إصلاحات وتنظيم جيش جديد فقامت ثورة الانكشارية، وعند ضعف السلطان عن ردعها رضخ لمطالبهم، والتي طالت رأس الوزير الأعظم". (Standford, 1983: 277)

التواجد الفرنسي:

كان هذا التواجد هو العين المراقبة للأحوال الداخلية للجزائر العثمانية، فقد كان الموفدون إليها متعدّدو المهام، تجارية، دبلوماسية إلى الجوسسة، فكل الوسائل متاحة للحفاظ على تواجدهم. فقد أصبح منصب القنصل هو أهم شخصية تضمن صفقات تجارية ومداخل لدولته.

"القنصل بالمزايدة لمن يدفع أكثر إلى أن أثبت الوسط الديني كفاءته الدبلوماسية، وتقبلهم في الوسط المغاربي لا سيما الجزائر إما احتراماً لرجل الدين أو تلك التبرعات التي يجمعونها سنوياً في اقتداء الأسرى بالدرجة الأولى". (بليل، 2011: 40)

أما هدفهم التجاري هو المحافظة على حصن الباستيون وانتهاجها نهج التسوية من خلال الهدايا للحكام، غير أن الجزائر:

"أقصى ما كانت ترمي إليه هو الوصول إلى إقرار مبدأ
المعاملة بالمثل وتعاقداتها المختلفة". (قنان، 1887: 259)

مساهمة القناصل في إذكاء التنافس والصراع بين فرنسا وإنجلترا:

قبل التطرق إلى المنافسة وما انجر عنها، نذكر في بادئ الأمر التحالف الذي كاد
أن يُعقد بين فرنسا وإنجلترا، ولو تم الأمر لكانت نتائجه وخيمة على العثمانيين والجزائريين
أكثر من هذه المنافسة.

"يعتقد أن التحالف يتم ضدّ كل من هؤلاء اللذين يريدون
الظهور بأنهم أتراك، غير أن أحسن منهم
المسيحيين" (Defontain, 1930: 130)

كانت هذه من إنجاز السفير المشهور بدهائه وحنكته السياسية في فرنسا وإليزهام،
ولو عقد هذا التحالف بين تزويج إليزابيث من دوق أنجو قبل معركة لبنان، وعند فشله
وجه تحالفه مع العثمانيين ضد التحالف الإسباني الفرنسي البرتغالي، ليتوج إلى تشجيع
الملكة إليزابيث السلطان العثماني بإرسال أرمادة إلى الحوض المتوسط للقضاء على
الإسبان.

"قيموا الفرنسيين الوضع بتحصل الإنجليز على خمسة
وثلاثون بند من معاهدة الامتياز لممارسة التجارة بدون شرط
أوقيد". (Braudel, 1972: 625)

ليتوجه الاهتمام إلى الجزائر العثمانية لقربها من إسبانيا وعليه المنفذ إلى المحيط
بالإضافة إلى تواجدها بالشرق الجزائري والذي خدم تجارة والملاحة البحرية الإنجليزية من
خلال تزودها بالمواد المهمة لسفنها.

"فقد ظل الإنجليز يتزودون بأخشاب غابات عنابة والقالاة
وبني صالح وسبوس مقابل ألف فرنك حتى سنة 1817م".
(سعيدوني، 1979: 31)

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

ومن الجانب الفرنسي قام الملك الفرنسي بتعزيز علاقاته مع الباب العالي وسعى كل ملك يعتلي العرش في المحافظة على مكتسبات فرنسا التي أمنها لها فرنسوا الأول، وذلك من خلال مراسلة السلطات.

"مراد الرابع لتكفل في 1604م برسالة أهم ما ذكر فيها التمسك بتطبيق المعاهدات المبرمة مع سلفه وحرية الصيد وعدم تعرّض الرياس لهم ومعاقبة كل من يقوم بذلك".
(Féraud, 1877: 104)

وبصرف النظر عن تدخلات الملك، كانت كل المراهنات تتركز على مدى براعة ودهاء القنصل في الحصول على مبتغاه، كما جرى في حادثة:

"تخطيط البستيون الفرنسي الذي يرجع سببه المجاعة التي ضربت الإيالة (الجزائر العثمانية) لتكون أول مثل لتعويض من طرف الباب العالي لقوة أجنبية، ليعدم الباشا المسؤول".
(Primaudaie, 1861: 15)

ومع فشل التحالف الفرنسي الإنجليزي، ظهرت حقيقة تقديم مصلحة كل طرف على الآخر واستعمال كل حيل ضد بعضهم البعض لإزالة حضور خصمه في حوض المتوسط الذي كان أهم البحار في تلك الفترة، وخاصة ما شهده من الأحداث.

"قلم تتغير سياسة التحضير والتصغير التي انتهجتها فرنسا إزاء إنجلترا، فقد كانت تطلق عليها اسم الشركة التجارية الإنجليزية بذات عشرين سفينة". (Plantet, 1889: 14)

فقد كانت إنجلترا حذرة في نفس مكان تواجد الفرنسيين لأن هذه الأخيرة لم تنفك عن استعمال المآمرات لإخراجها من دائرة مصالحها، ورغم هذه الضغائن لم تتوقف إنجلترا عن التوغل في أقاليم الجزائر العثمانية وخاصة الغربية ومحاولتها في فتح محطات لها.

"قلم تكن لها قنصلية تمثلها في وهران إلا بعد مفاوضات
سولت وتوقيع معاهدة 1719م". (Lespes, 1938: 324)

ويعود هذا الفضل إلى الدسائس ومؤامرات القنصل الإنجليزي الذي أراد الاستحواذ
على التجارة وتزويد:

"حامياتهم بجبل طارق وما هون من خلال تأمين الحصول
على الحبوب من وهران، التي تحتاجها قواتهم بالمنطقة
وعرقلة فرنسا في الحصول عليها". (Godfrey, 2000: 374)

كما أن إنجلترا لعبت على الحبلين كرهها لفرنسا جعلها تنحاز إلى عدوتها القديمة،

"وذلك من خلال رسالة متبادلة بين إنجلترا وإسبانيا وتهنئ
إسبانيا بإعادة استرجاع لوهران 1732م وعبرت على أنه
حدث سار ولن تتوارى جرائدها عن نشر الخبر".
(Sandoval, 1864: 222)

فاسترجاع إسبانيا لوهران، تضمن بقاء قنصليتها وبالتالي ضمان الحصول على
امتياز تصدير الحبوب وسهولة الولوج إلى المحيط، كما شكّلت تدخلات القناصل
الإنجليز لدى حكام الإيالة هاجسا لدى الفرنسيين، ولقد كان لهذه الإعازات أثر ما انعكس
على طريقة معاملة القناصل الفرنسيين.

"فقد تم تهديد القنصل الفرنسي بعد عودته في 12 جوان
1755م وتم إبعاده بسبب عدم جلبه الهدايا للداي بابا علي
وأیضا المساعدة التي عرضها القنصل الإنجليزي له
لاسترجاع وهران ومعاقبة السفن المالطية التي هاجمت
السواحل بإعاز من قصر فرساي". (Grammont, 1889: 311)

أوضاع القناصل بالجزائر:

لم يكن الصراع خارجيا فحسب وإنما كان داخليا متمثلا في تلك الاعتداءات التي مست القناصل ومصالحهم وتأثرهم بها ومدى انعكاس هذا على حكاهم.

"شكوة في سنة 1795م المبعوث بسبب أحد رجال القبائل الذي فتح النار على المسيحيين في منازلهم ويطلب حماية الداي لهم لسحب تجارتهم من الحصن بالقالة". (Féraud, 1877: 131)

"في الغالب الفرنسيين مقارنة مع الإنجليز والهولنديين، التجار والشركات الفرنسية عاشوا في انعدام الأمن ويتعرضون لتبعات قطيعة السلم مع الولايات البربرية" (Masson, 1903:96)

في ظل تقاعس باي قسنطينة في حل هذه الأمور أو التدخل، فقد كانت المحطات التجارية للقالة دائما معرضة للاضطرابات والقطيعة خلال كل ثورات الجزائر العثمانية وأحداثها.

"مع تدخل كل مرة للإنجليز، ولم تكف عن ذلك رغم تراجع التجارة، وأيضا إلى جانب الموركسين الذين لم يكتفوا عن ذلك". (Féraud, 1877: 21)

رغم ما وفرتة الجزائر العثمانية للقناصل من سبل الراحة والعيش المريح لم يغن هذا عن ما يتعرضون له في كل ثورة أو اضطراب، وقد ذكرت أغلب المصادر اهتمام الجزائريين بتوفير الأماكن الجيدة لهم.

"فالسكنات كانت مزيج من الشرقي والأوروبي، والأثاث منقى بعناية، محاطة بالأشجار المثمرة ولأزهار وأحواض الماء". (Biamchi, 1877: 424)

كما أن المآمرات التي كانت تحبك في الخفاء لها ثمارها في أرض الواقع ولطالما انعكست في الساحة السياسية كما حدث بعد معركة لبنانت وتدخل فرنسا عن طريق سفرائها لصنع أي حلف في حوض المتوسط.

"كما أن وقف المفاوضات والسلام بين إسبانيا وعلج علي في 1576م كان بإعاز من السفير الفرنسي". (Grammont, 1889: 118)

"وفي سنة 1802م تم طرد القنصل فالكون وفي 1801م ظهرت سفن اللورد نيلسون أمام مدينة الجزائر مطالبا برجوع الفوري للقنصل في استمرار رفض الداي إلى غاية 1806م ليتم تعيين قنصل آخر". (Playfair, 1879: 461)

ومن مواقف احتيال فرنسا إزاء كل الأطراف هو الدور الذي لعبته في إنقاذ إيطاليا من الهجوم الذي قاده السلطان سليمان بنفسه للإغارة على بلاد إيطاليا وكان معه:

"كل من ولداه محمد وسليم والسفير الفرنسي دولا فودي في نفس الوقت نزل خير الدين باشا بميناء جنوب إيطاليا لكن إجمام فرنسا عن التقدم من الغرب كان سبب في عدم نجاح المشروع وانتهى بمعاهدة نيس" (المحامي، 1988: 235)

وعبر تداول الأحداث وربطها ببعضها البعض قد فهم القناصل الدور الذي لعبته الجزائر العثمانية في خضم كل هذه التغيرات العالمية، مع تراجع الخلافة العثمانية، ليركز كل طرف على أهمية التقرب من حكام الجزائر العثمانية وليس الباب العالي، ليعيد كل بلد خطفه واستراتيجيته لفرض تواجه بالجزائر العثمانية والحوض المتوسط.

"فقد حظي مبعوث الإيالة (الجزائر العثمانية) محمد أمين خوجة استقبال حسن بفرساي ورجع في سنة 1691م بهدايا قيمة وكثيرة، ليتم حل المسألة العالقة كالأسرى والسلام". (Grammont, 1890: 2)

وانتهج كل قنصل سياسة الترقب ونقل كل شاردة وواردة بدوره في الجزائر العثمانية داخليا وخارجيا وخاصة الأزمات الدموية التي تخللت حياتها،

"ففي عهد البيلربايات ومحاولة إخضاع الباب العالي لحكام الإيالة (الجزائر العثمانية) وتجنب استغلالهم، وعدم تمكن المبعوثين لها من الوصول إلى المسؤولين الذين استعانوا بالكولغوليين ضد الانكشاريين مثل أحداث 1626م حيث وضعها القنصل الفرنسي بمدينة بابل". (Grammont, 1889: 126)

"كما شكلت الفترة الأخيرة من عمر الإيالة (الجزائر العثمانية) توافد القناصل والمبعوثين عسكريين أكثر من أن يكونوا مدنيين وبالتحديد 1827م وبدأ من كولين". (Plantet, 1887: 590)

ليكون لهم الدور في التخطيط ونقل المعلومات العسكرية وبداية لنهاية الإيالة لطالما كانت الهاجس والحصن المنيع الذي لم يؤثر فيه حملات عسكرية أكثر ما أثرت فيه حملات جوسسة وسلسلة مؤامرات ودسائس أنهكته وقضت على الجزائر العثمانية رهبت الدول المسيحية الكبرى ودخلت التاريخ من أوسع أبوابه.

كما ظهرت مواقف متباينة من جانب حكام الجزائر العثمانية من إعلان حرب أو سلم بسبب تصرفات قناصلها غير أن الكتابات الأجنبية تفنّد ذلك، فقد كانت لهم مواقف إزاء قناصلها وأخطائهم ولم تدخل في مشاكل الجزائر العثمانية، على سبيل الذكر حادثة هروب أشخاص من الحادثة التي تسبب في قتل أميركان إلى قنصل إنجلترا ورفض تسليمهم للإيالة عند طلبهم غير أن ردّ دولته كان:

"بأن الحق مع الجزائر ولا مدخل لهم في رعيّتهم، ولا نجعل عداوة فنخسر أموالا". (الزهار، 1980: 152)

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

أما من الجانب الفرنسي فقد استغلوا تطبيق المعاهدة للامتياز مع درايتهم أن الهدف الرئيسي هو التدخل في الشؤون الداخلية.

"كطلبهم بعزل حسن داي باي قسنطينة وعدم ردهم على مطالب الجزائريين بعدم السماح برسو سفن غير فرنسية".
(الميلي، 1964: 142)

ليكون انفراج حسب طبيعة الشخصية الحاكمة كما حدث بعد الثورة الفرنسية عندما التزم الحاكم الحياد ولم يعلن العداء لفرنسا رغم ضغوطات إنجليزية،

"في المقابل في رسالة من الجنرال بونايرت إلى القنصل في 1788م ليطلب من الداوي إطلاق سراح الأسرى المالطية باعتبارهم تحت حمايته بالمقابل أعلمه أنه أطلق سراح أكثر من ألفين بربري وتركبي". (Badie, 1862: 132)

ومن بوادر المؤامرات أيضا في العلاقات الفرنسية والعثمانية التي عرفت ضعفا وفتورا حسب طبيعة السلطان العثماني ودهاء بعض الشخصيات مثل رشيليو الفرنسي.

"عهد السلطان محمد الرابع والكاردينال رشيليو الذي كان مشغولا بنفوذ فرنسا، وأيضا مساعدة فرنسا جهازا جزيرة كريد بالجنود ضد العثمانيين". (المحامي، 1988: 294)

وهذا الفتور يمكن إرجاعه أيضا إلى جانب تدخلات القناصل وتصرفاتهم إلى العدو التقليدي إنجلترا،

"والذي ساهمت إنجلترا لدى الدولة العثمانية لإصدار فرمان يمنع الجزائر من إقامة علاقة فرنسا إثر حملة نابليون على مصر وأمر الداوي مصطفى بإشهار عدائه للفرنسيين".
(الزوبيري، 1980: 225)

"لتشهد الإيالة (الجزائر العثمانية) مؤامرة القنصل الإنجليزي وخوذة الخيل لقتل هذا الداي جراء عنده لعداء فرنسا بل قريبهم في أزمتهم الاقتصادية كما جاء في ذكر الزهار جاء متخفيا ومعه بعض أصحابه فدخلوا الإمارة فأخذوا السلاح وتفرقوا". (الزهار، 1980: 81)

مع تداول الأحداث تدخل الجزائر العثمانية في صراع سياسي مع القسطنطينية التي ما فتأت تتدخل كل مرة، رغم دراياتها أنها تحكمها إسميا إلا أن تدخلها في كل شكوة فرنسية:

"صالح فرنسا في سنة 1603 بإعاز من الرياس لهدم البستيون، تدخل الباب العالي وأعدم الباشا الخضر على يد قوصة باشا، لكنه لم يتمكن من إعادة بناءه". (الميلي، 1964: 149)

المصالح الشخصية ودورها في هذا الصراع:

طغت على الأحداث في الجزائر العثمانية المنفعة الشخصية، وغالبا ما كانت سبب اهتزاز العلاقات.

"في سنة 1802م قدّم القنصل الإنجليزي بوهران سفينة شحن ذخائر مساعدته لباي وهران عثمان باي، وقع تنافس له من الخزنجي فاستوحش منه كثيرا فارتأى الفرار لينجو بنفسه". (الزهار، 1980: 83)

فقبول المساعدة من القناصل هو بحد ذاته تدخل في شؤون الجزائر العثمانية، ففي سنة 1763 احتجّ الباي والداي على كمية المرجان المرسل إليه، وكانت هذه الاحتجاجات لتحذير الوكيل الفرنسي من التلاعب بحصة الباي من المرجان المصطاد بالمنطقة.

"كما أن الباي هو المسؤول عن المبادلات التجارية المبرمة مع الفرنسيين بالبستيون فيما يخص الصوف والجلود إلى ما غير ذلك، لكن سعر القمح يحدّد من طرف الداى".
(Merouche, 2002: 20)

"الداى الذي اختص لنفسه بهذا لامتياز أما بيع الصوف فهو ظل من اختصاص الباى فهو يشري الصوف بـ8 بياسترا ويبيعها بـ10، فالشركة الإفريقية ليس لها أي حق في الصوف المصدر من الجزائر، التيطري معسكر، فبايلك يبيع لمن يشاء". (Paddi, 1898: 18)

إلى جانب هذه الامتيازات يوجد مداخل أخرى زادت من قوة الحكام ومطالبهم بها دائما، وقد كانت هذه الامتيازات السبب الرئيسي وراء شراء منصب الداى أو الباشا في إسطنبول، ليقوم بتعويض ماله من خلال هذه المنح والهدايا، وقد تكون من أهم أسباب تدهور السلطة لعدم توفر الشخصية الملائمة لهذا المنصب.

"الداى يتقاضى مرتبا على رتبته العسكرية، لكنه يتقاضى هدايا ضخمة سواء من البايات أو القناصل الأجانب ويطلق عليها العوائد". (الميلي، 1964: 291)

"وتتمثل كالتي قدمها القنصل دوفال في 1815 إلى الباشا وتضم مجوهرات وساعات، أقمشة وأسلحة بالمقابل أعاد الباشا حق الامتيازات التي فقدتها فرنسا، وهذا التصرف إثر حملة إكسمورث الإنجليزي على الجزائر". (أبو قاسم، 1984: 21)

ضمن سياق خدمة المصلحة الشخصية، فقد لجأت فرنسا من خلال قناصلها والأسرى،

"لتزويدها بمعلومات حول الأوضاع الداخلية للإيالة وخاصة القوة العسكرية والمراكز إلى جانب التحصينات والمدفعية ومنهم الأسير تبدينا أسير الباي محمد الكبير". (عميراوي، 2009: 25)

"وأیضا الاستعانة بخبرة لضباط مثل بوتان المتخصص في الهندسة العسكرية والذي أقام بالجزائر وبمساعدة أسر يهودية على غرار أسرة ابن زاحوت". (بودغدغ، 2008: 27)

ولولا تسامح الحكام مع الأسرى واستضافتهم للموفدين والمبعوثين دون أي تخفضات جعل الجزائر العثمانية مفتوحة لهم، وانشغالهم بالهدايا وغالبا ما كانت تدفع الهدايا تحت الضغوطات، كما:

"حدث مع القنصل تانفيل عندما انتهى به المطاف من المراوغة والدبلوماسية في 1811 تحت ضغط ضباط الإيالة (الجزائر العثمانية) بتقديم حكومة الإمبراطور الهدايا للجزائر". (Plantet, 1887: 516)

فقد كان شغلهم الشاغل هو مرافيه الإنجليز وما يقدمونه للجزائر العثمانية كما جاء في أحد رسائل القنصل الفرنسي إلى حكومته:

"القنصل الإنجليزي لا عمل آخر له سوى الذهاب والإياب لجلب بضائع تافهة لا غرض منها سوى جعله سخرية، بهدف إغاضتنا فقط". (Grammont, 1889: 22)

كانت الهدايا تشحن إلى ميناء الجزائر من كل الدول الأوروبية.

"1797 بعث ملك إنجلترا لباشا الجزائر مدافع أربع قطع وملتزماتهم الحربية على ظهر غرناطة إنجليزية". (Develeux, 1852: 62)

"كما أن الجزائريين كانوا يفضلون بشدة بعض الهدايا مثل الساعات الإنجليزية على الفرنسية بسبب شكلها الجميل".
(Paradis, 1898: 122)

أشغل بعض الدايات على الصراع الإنجليزي الفرنسي وتسابقهم لإرضاء الحكام لمصلحتهم الشخصية،

"وهذا ما أقدم عليه الداوي أحمد عندما سحب الامتيازات الممنوحة لفرنسا في الشرق ومنحها للإنجليز". (Mercier, 1903: 320)

لتشكل هذه المنافع الخاصة بهم الدعم من طرف إنجلترا وعرض ولائها للجزائر العثمانية كما جاء في أحد الرسائل الموجهة للداوي الحاج علي سنة 1812م يؤكد فيها:

"استمرار عرى الصداقة بين البلدين، وإنجلترا سوف تحمي الجزائر من أي خطر خارجي". (شالير، 1982: 140)

غير أن هذه أعطيات لم تكن دائما، فالجزائر العثمانية كانت عرضة للأزمات والمجاعة والأوبئة،

"وأثرت في حياة الناس، حتى القناصل، فمن خلال رسائلهم وطلب المساعدة من الغرفة التجارية لتمويلهم وإرسال النقود باعتبار أن بيت القنصل هو الملاذ الوحيد للفرنسيين الأسرى بالإيالة (الجزائر العثمانية)". (Grammont, 1890: 15)

دور القناصل الإنجليز في ثورة ابن الأحرش:

أخذت هذه الثورة طابعا دينيا حسب زعيمها، يقصد حشد عدد كبير من مناصرين، تتبنوا فكرة جهاده ضد الفرنسيين في مصر ما أكسبه شعبه واسعة ومناصرين من كل القبائل الجزائرية، ليغتنم هذا ويعلن الحرب ضد العثمانيين بإعاز إنجليزي.

"دخل ابن الأحرش في لعبة الإنجليز المهتمين بخلق العوائق للداي مصطفى باشا الذي مارس سياسة تقارب فرنسية إليه".
(Boyer, 1966: 42)

ولم تكن إنجلترا الوحيدة التي تسعى وراء هذه القطيعة، فقد استغل أعداء ناقلين الفرصة، من أجل خلق الفوضى وإضعاف السلطة الحاكمة بثورات داخلية والتي لا طالما كانت هاجس كل الباشوات والدايات، واستنزفت الكثير من الأموال والأرواح.

"تم استدعاؤه من طرف أمير تونس حمودة باشا، فلما قدم لقبه بالبشر وعظمه وشكر صنعه، وكانت عند حمودة باشا دسائس ضد ملوك الجزائر ووسوس له أن ينزع الملك منهم".
(الزهار، 1980: 85)

وتعالت هذه الدعوات بعد محاربته للفرنسيين في مصر، فذاع صيت ابن الأحرش بمصر والمغرب، وجعله المحارب الذي تأمله الأهالي في الجزائر لتخليصهم من ظلم العثمانيين بسبب كثرة الضرائب واستبعاد العنصر المحلي من الحكم وعدم التساوي في الحقوق.

"مما لفت إليه انتباه الإنجليز الذين اتصلوا به على أمل أن يستخدموه في المغرب العربي، إثر فشل محاولتهم إزاء الداء لإثارته ضد فرنسا". (الميلي، 1964: 253)

"وأیضا انتقاما منه عند طرده للقنصل فالكون الذي تم ضبط نساء تركيات في بيته اللواتي عوقبن بالضرب بالعصا".
(Grammont, 1889: 359)

شكلت هذه الثورة هاجسا للعثمانيين في الداخل وركز عليها الداي لإخماد الفتنة،

"خاصة بعد ازدياد شوكة ابن الأحرش بعد قتل الباي عثمان وأخذ أمواله وآلات حربه، جمع القبائل وكاتب العرب".
(الزهار، 1980: 86)

تعاون هذا الأخير مع المشرقين ضد الفرنسيين في مصر مما أكسبه السمعة الجهادية وذلك،

"بإعاز من الإنجليز كما ورد في قوله، الإنجليز سرحوا الأرض من الذين احتواها وأمرني الله بحسن معاملتهم".
(Berbrugger, 1858: 211)

ويرجع هذا التبرير لنوع العلاقات التي جمعتة بالإنجليز ومساعدتهم له،

"وانتقاله من الشرق إلى الساحل الجزائري على متن سفينة إنجليزية، وانتهى به المطاف بعد ثوراته إلى غرب البلاد فقتله ابن الشريف الثائر بها وانطفئت نار الفتنة من الناحية الشرقية". (الزهار، 1980: 87)

رغم تشكل ثورة دينية موازية له في الجهة الغربية، غير أن المصادر الأجنبية اهتمت بثورة ابن الأحرش لما لاقاه من دعم وكثرة الملتفين حوله وإنجازاته الحربية ضد العثمانيين وما تكبدوه من خسائر ضده.

"فقد بلغ عدد المحاربين الذين التقوا حوله عند هجومه على قسنطينة إلى ما تقارب عشرة آلاف ولولا عملية النهب التي قاموا بها وتشتت صفوفهم، واستغلال المدينة لمدافع اضطر ابن الأحرش أن يتراجع بعد أن أصيب بجرح خطير".
(سعيدوني، 1999: 315)

طبيعة الصراع وانعكاساته على الأحداث في الجزائر:

التأثير على الجانب الاقتصادي:

مع بداية 701-1710م شهدت فرنسا أزمات أهمها الفقر والمجاعة والحروب الخارجية التي لم تنقطع وكلفت أموال الخزينة العامة، مما جعل الفرنسيين يتسارعون في إبرام معاهدات التجارة والسلم وقد تنازلوا عن بعض حقوقهم

"طالت الجنوب الفرنسي، غير أن هذا لم ينقص من عزيمة فرنسا من الفوز على حساب غنيمتها إنجلترا من خلال حصولها على الموافقة العثمانية في مباشرة إقامة شركة هيلي 1701-1713م". (Masson, 1930: 263)

"عدة معاهدة تمت خلال القرن الثامن عشر، 1707-1710 -1714 -1748 -1724 -1731 -1732 -1743 -1745 -1748 -1754 -1766 -1767 -1768 -1790، وقد تمت تنازلات بحق الشركة التجارية لهيلي، غير أن معاهدة 1714 كانت الأهم التي عقدت مع حاكم القالة والتي سمحت لسفن الشركة تحميل القمح والشعير لبون مع ليونة في الدفع بعض حقوق التصدير" (Card, 1906: 7)

وذلك على إنقاض العقد الذي تم عقده في السابق ع إنجلترا في منطقة:

"القالة نسبة للمدير العام هيلي ببيير في سنة 1696م، وعرف باتفاق الوعد بالحماية. (Féraud, 1877: 278)

وبموجبه تواعد مسؤولي الشركة بإنزال أقصى العقوبات على التجار الفرنسيين في حال تم تحويل القمح إلى مناطق غير بروفانس.

"وما زاد من تخوّف فرنسا على وارداتها هو تحصل إنجلترا على الحبوب من غرب الإيالة (الجزائر العثمانية) بعد تحرير وهران 1708، ورجع الفضل لبايكون عندما أبرم صفقة تصدير الحبوب نحو المحطات الإنجليزية عبر جبل طارق وماهون". (Godfrey, 2000: 375)

من الأمور المهمة التي أحضرت باقتصاد الجزائر العثمانية وتأثير إقتصادها إثر الأزمات التي ضربتها جراء الجانب السلبي للامتيازات على النظام المالي للبلاد.

"فقد كانت تمنح مقابل أشياء تافهة وترضيات بسيطة لم يكن لها أي مساهمة إيجابية في ميزانية البلاد". (سعيدوني، 1979: 77)

"بالمقابل تراجع الغنائم البحرية بإعاز من البابا العالي والذي قيّدت به البحرية الجزائرية تحت طائل الاتفاق بنفس الاهتمامات القديمة". (Plantet, 1877: 2)

والجدير بالذكر أن رغم المد والجزر في اقتصاد الجزائر العثمانية وتأثره بالأحداث إلا أن تاريخها الاقتصادي لم ينقض إلى حد مقلق من ازدهار الجزائر العثمانية بشاهدة كتابات أوروبية.

"كانت العشرية 1560-1570م هي الفترة المثمرة لثورة الجزائر وأيضا 1580-1620 هي الفترة الثانية الثمينة والمزدهرة لهذه المدينة". (Erstin, 1982: 2)

كما يجب التنويه لدور الجوسسة التي قام بها القناصل لنقل الأحداث التي شهدتها الجزائر العثمانية والتدخل فيها بداعي حماية تجارتهم ومصالحهم كما كان عليه الأمر.

"في السنوات 1628-1666-1683م التي عرفت هجومات متكررة للأسطول الفرنسي على مدن الجزائر شرشال، جيجل". (سعيدوني، 1999: 199)

وهذا كان إثر إخلال الجزائر العثمانية بأي اتفاق معهم، فلم تكن تخص عنهم أي شاردة أو واردة.

"وهذا ما جاء في أحد رسائل القنصل الفرنسي دوفال في 1817 على أن الداوي وافق على تخفيض قيمة البندقية شيك من 6 إلى 6 موزونات". (سعيدوني، 1979: 213)

بالإضافة إلى القرصنة التي انعكست بالسلب على الجزائر العثمانية من الجانب الأوروبي فحسب أحد التقارير الموجهة إلى البابا العالي:

"يوضح الخسائر بالجزائر التي تسبب بها سفينة إنجليزية من سلب وأسر العثمانيين والمسيحيين مما تسبب بغلق ميناء الجزائر بوجه السفن الإنجليزية". (Godfrey, 2000: 187)

كما أنه لم يخفي على القنصل دور الرياس في الاقتصاد البحري للجزائر العثمانية، ومكانتهم عند الشعب وتمكنهم من قلب الجزائريين على الأوروبيين، وذلك بافتعال العنف لخدمة مصالحهم البحرية:

"بافتعال عنف الجزائريين في قضية البستيون الفرنسي في 1658، فحالة الحرب هذه تسمح لهم بمطاردة السفن الفرنسية". (Boyer, 1973: 163)

بهذه التقارير كانت توجه الرسائل إلى حكوماتهم، مفصلة عن الأحوال الداخلية حتى في الكوارث الطبيعية:

"تدخل الرياس في 1716 عقب زلزال ضرب المدينة وما تلاه من نهب ليقوموا بمهاجمة سواحل المتوسط والبرتغالية

واستولوا على غنائم معتبرة إنجليزية وهولندية" (Grammont, 1887:278)

مما عجل بإجراءات دفاعية من الجانب الإنجليزي وذلك من خلال تسليح كل السفن بالمدافع.

"ولم يتمكن الحكام بالإيالة (الجزائر العثمانية) من ضرب عرض الحائط بالحماية العثمانية لهم إلا بعدما تملصوا من البابا العالي إثر رفض الداي على شاوش في 1711، دخول شرخان إبراهيم إلى الجزائر". (Grammont, 1887: 276)

كما يجدر الإشارة إلى الثورة الفرنسية وانعكاساتها على المستوى الداخلي والخارجي، فقد اغتتمت حدودها التقليدية الفرصة للتقرب من البابا العالي وعليه تحصلت على أكثر امتيازات وحضوة.

"تميزت إنجلترا بالنفس الطويل بعد مساعي ومؤامرات على المدى الطويل، إذ تمكنت من افتكاك جوهرة فرنسا على سواحل إفريقيا وهي امتياز استغلال المؤسسات بالسواحل الشرقية وأصبحت سيدة الموقف مع 1807 واحتكارها لصيد المرجان". (بليل، 2002: 239)

لنتشغل فرنسا بأزماتها السياسية والاقتصادية والتي لجأت إلى الجزائر العثمانية للحصول على القمح بالقدر الكافي، من أجل تموين مخططات نابليون في المشرق، ليحصل بعض الانفراج للإنجليز ومحاولتهم الاستفراد بالموقف

"وأبعاد أطراف أخرى والحصول على أكبر كمية من المؤونة والتي زودتها جملتها على مصر". (Berbrugger, 1875: 24)

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

ولاسيما أن إنجلترا انتهزت الموقف وأزمة فرنسا وتشابك الأحداث لتضرب طوقها عليها لتضيق الخناق عليها.

"فرضت حصارا بحريا شديدا على السواحل الفرنسية
1792-1794م ومنعت بعض الدول التعامل معها، آملة
بذلك تجويع الفرنسيين، غير أن الخطة الحصار قد أثت
بفشلها". (شويتام، 2010: 84)

لتنتهز الجزائر العثمانية هذه التطورات وتتفك بأزمات فرنسا وتآمر إنجلترا وهذا ما
عملت عليه فرنسا، فقد أصبحت المصلحة الشخصية بشدة الموقف، فالهدف لكل دولة
هو الحصول على أكبر حصة من الآخر.

"كما أن الإيالة (الجزائر العثمانية) حضيت من خلال هذا
التنافس بالمنفعة إذ أن الحكومة الفرنسية أدركت ضرورة
مجاملة حكام الجزائر للتقليل من آثار المنافسة والتأثير
الإنجليزي". (Plantet, 1887: 5)

كما أن الأجواء الطيبة بين الإيالة والجزائر لم تكن لترضي الإنجليز ولم تتفك هذه
الأخيرة عن إثارة المؤامرات لقلب الأمور كما حدث في السابق مسألة المدفعين ومجزرة
مرسيليا عندما قام منافسون نابوليون:

"شراء مدفعين اللذان تسببا في الحادثة وتوجه إلى الجزائر
1626 وتسليم أسير سلم وتفاوض مع رجال وضباط الديوان
مستغلا لغته التركية، وعندما شعر الإنجليز أنه على وشك
النجاح أشاعوا أن نابليون قد زور الأمر الذي حمله من
القسطنطينية، مما دفع الجزائر إلى إرسال عشرين موصولا
إنما للتأكد". (الميلي، 1964: 154)

دور اليهود في الأزمات الاقتصادية وتأثيره على الأحداث السياسية:

لعبت الجالية اليهودية التي تركزت في سواحل الجزائر العثمانية واعتمدت النشاط التجاري دوراً هاماً في الأحداث التي عرفت الجزائر العثمانية، كغيرهم من سكانها تضرروا من الأوبئة التي انعكست عليهم.

"سواء في عددهم ففي سنة 1787م هلك منهم 1774

يهودي". (Lespes, 1938: 138)

كما أن تجربتهم وحنكتهم في التجارة عززت من تواجدهم واكتساب مكان لهم في الجزائر العثمانية وخاصة بعد الهجرات التي تمت نحوها بالأخص في فترة الانتعاش الاقتصادي وازدياد مداخيل القرصنة.

"إن الهجرة اليهودية الليفورنية اتجاه الجزائر اشتدت خاصة خلال القرن 17 باعتباره العصر الذهبي للقرصنة فتوزع هؤلاء عبر مختلف المدن الجزائرية، وكان على هؤلاء أن يكونوا تحت الحماية القنصل الفرنسي". (بليل، 2002: 129)

وهذا الانتعاش في تجارتهم وعلاقاتهم باليهود ما وراء البحر كان له الأثر الكبير في السياسة الداخلية للجزائر العثمانية.

"بالإضافة إلى تدخل اليهود في اقتصاد البلاد، فقد كانوا يحظون بجميع منافع ذلك مقابل الاحتكار لأن لهم أسعار يشرون بها". (بن صحرابي، 2005: 2)

وقد استغل هؤلاء اليهود الخلاف بين كل من فرنسا والإنجليز ومحاولة كل طرف جرّ الجزائر العثمانية إلى طرفه:

"تراجع النفوذ الفرنسي أمام الإنجليزي، عقب فشل فرنسا لاحتواء الإيالة (الجزائر العثمانية) وجرها لجانبها في

صراعها الإقليمي ضد إنجلترا لتنتج عنه معاهدة أو تراخيص
1713م". (راشد، 1985: 271)

وتعد هذه المعاهدة من أهم الموثائق الأوروبية، لتسجل تراجع إسبانيا وفرنسا
وتطوق بحري للإنجليز:

"مما عزز موقفها ونفوذها إلى جبل طارق، وتزويد حامياتها
من الإيالة (الجزائر العثمانية) الغربية وإرسال هدايا للسلطان
لإرضائه خاتم للسلطان و60 حايك من الحرير، و70 أسير
و16 ألف محبوب و2000 دينار ذهبي". (Develeux, 1852: 57)

مساهمة اليهود في الاحتكار الاقتصادي:

ينبغي عدم إغفال مدى تغلغل النفوذ اليهودي واحتكاره لعصب الحياة واستغلال
تفوقهم التجاري للضغط على الحكام لقضاء مصالحهم داخل الجزائر العثمانية لتعكس
فوائدها على محطاتهم ما وراء البحر.

"أهم الأسماء اليهودية التي لعبت دور هام هم نفتالي
بوجناح 1723، أبرهام بوشارة 1732، كوهين باكرى
1774". (Eisenbeth, 1952: 159)

ونلمس هذا التوغل في أحد الرسائل الموجهة إلى حكومة فرنسا في 18 ماي
1797م:

"لقد تم إعلامنا من طرف باكرى وبوشناف عن تلقىكم مغالط
فيه عنهما فيما يخص إعطائنا للإنجليز تجارة الشركة
الإفريقية بوساطة منهما وتؤكد لسيادتكم مدى تمسكنا
بصداقتنا معكم". (Plantet, 1887: 463)

أحرزوا بفضل دهائهم وحنكتهم إلى عدم التحيز لأي طرف فأحيانا ينحازون إلى فرنسا إذا كانت بموضع:

"القوة أو إلى منافستها إنجلترا أثناء ضعفها كما حدث في 1807 و 1817 واحتكارها تصدير إلى مرسيليا وليفورن بعد فقدان فرنسا لامتيازاتها وتسليمها إلى إنجلترا في جانفي 1807". (دادة، 1985: 49)

كما أن التسهيلات التي حظي بها اليهود من الجزائر العثمانية من خلال نقل الحبوب واللوازم إلى فرنسا في ظل الضائقة المالية التي تعاني منها فرنسا كما أن طبيعة الباشوات والديات المحبة للمال أبعدت الفرنسيين كما جاء في أحد الكتابات عن استغلال اليهود لهذه الأزمات:

"نحن نرى حب المال هو السبب الذي جعل بايات قسنطينة يتجاهلون التزاماتهم نحونا وباعوا مناصب منفعتها لأكثر الواهبين من أولاد العائلات الإقطاعية وتمادوا حتى إلى تجار اليهود من أجل مصالحهم". (Féraud, 1877: 487)

وأحيانا كانت المعاملات التجارية للداي تتم مباشرة مع اليهود دون وسيط أو إذن كالتالي تمت:

"صفقة بيع الأجراس ليهودي من ليفورن في 1717م و تتم إلغاء الصفقة من طرف الداي". (Tassy, 1724: 159)

لم يكتفي اليهود بالتدخل في التجارة الخارجية، واستعمالها كورقة ضامنة لبقائهم بل بادروا إلى تحدي من النوع الثقيل، ليتمكنوا من الدخول في السياسة الداخلية للإيالة.

"وذلك باستقبال الوفود الأجنبية باسم الداي كما حدث مع كل من قناصلة الدنمارك وهولندا في 1801م". (كاتكارت، 1982: 183)

وما زاد من قوة شوكتهم هو ذلك التعبير في معاملة الإنجليز لهم من خلال توصيات للقنصل الإنجليزي في الجزائر العثمانية، بدافع التضحية لقضاء مصلحتهم بالتحالف مع اليهود وإجازتهم بأموال لضمان تجارتهم:

"فقد أصبحوا وسطاء سياسيين بين أوروبا والإيالة (الجزائر العثمانية) حتى أنهم وراء إعلان الحرب من أجل مصالحهم". (Grammont, 1887: 235)

"غير أن خطرهم تلاشي مع قلة عددهم جراء ما تعرضوا له هم أيضا مثل باقي أهالي وسكان الإيالة (الجزائر العثمانية) من كوارث طبيعية وأوبئة، وسلسلة النهب والقتل التي كانت تنفذ في حقهم وخاصة أحداث 1805 ومع مقتل بوشناق وهجرة جماعية باتجاه ليفورن وتقدر بـ 200 عائلة". (Eisenbeth, 1952: 377)

مسألة الديون للتاجر اليهودي وتأثيره في مجرى الأحداث:

"بدأت هذه المشكلة عندما اشترى اليهودي التاجر باكرى الحبوب من الإيالة (الجزائر العثمانية) وإيطاليا وشحنهم إلى ميناء طولون ومرسيليا عقب قيام الجمهورية الأولى 1793م، لكنه لم يتم الدفع له وذلك راجع لتحامل كل أوروبا ضد الثورة وحتى داخل فرنسا". (Perret, 1902: 2)

كما جاء تذرير الحكومة الجديدة لفرنسا من خلال ممثلها في إحدى الرسائل حول تفضيل اليهود عليهم.

"عند وصول باي قسنطينة صالح باي للحكم، أعطى لأفضلية لبيع الحبوب لليهود في نفس الوقت أرسل للداي الجديد هدية تتمثل في حلي الرأس من الألماس" (Féraud, 1877: 456)

ولما طالب اليهوديان باكرى وبوشناق في 1796 من فرنسا المال بعد تمويلهم بالقمح:

"في نفس الوقت كانوا يمолان الإنجليز في جبل طارق،
شكّكت الحكومة الفرنسية بولائهم وفرضت عليه تسديد
مستحققاتهم". (Rozet et Carrette, 1850: 503)

أصبحت قضية اليهوديان قضية الجزائر، فبحكم العلاقات الجيدة التي قربت هؤلاء
من الداى حتى قام بتوجيه رسالة تحت فرنسا على تسديد دينها دون ممانلة أو نقصان
في الدفع، فالخدمات التي قدّمها اليهود في عدة مرات لدعم الحكام في الجزائر العثمانية.

"ففي 1603م عندما أراد دوق توسكان حرق السفن بموانئ
الإيالة (الجزائر العثمانية) على حين غرة، ثم إخطار الرياس
بهذا المشروع يهود ليغورن التي تجمعهم تجارة هائلة بهم من
خلال الغنائم". (Grammont, 1889: 145)

وعلى ضوء هذه الأحداث وجه داى الجزائر رسالة إلى فرنسا طالبا منهم إرجاع كل
ما عليهم لليهوديان، ويمكن أن يكون لهذا التدخل جانب من صفقة بين اليهود والداى
باعتبار المصالح التي كانت سيدة الموقف والمحرك الأساسي لكل قرار.

"باكرى وبوطاية يهود وأفراد من بلادنا مبلغ 20000 بياسترا
التي أقرضها بنية الصداقة، منذ سنين، ليتم إرجاعها بين
يدي الوارد أسمائهم أعلاه" (Plantet, 1889: 178)

ربما تكون مصلحة مشتركة بين الطرفين باعتبار اليهود بارعون في الصفقات ما
دفع الداى يأخذ موقف الدفاع عنهم، أو ربما يكون السبب باعتبار اليهوديان من سكان
الجزائر العثمانية تحت حماية الداى مما جعله يتصرف بحزم من فرنسا، غير أن هذه
الأخيرة كانت لها سابقة مع اليهود ضدّ قنصلها.

"كان المجلس مكلف بشراء عبد ملك للبايلىك بـ3000 بياسترا
بعده أيام، أعلم اليهود الحاكم بأن عائلة الأسير كلفت
القنصل بمنح 25000 بياسترا" (4: Grammont, 1890)

باعتبار الفرنسيين هم من أدخل اليهود تحت حقوق القنصل أدى بهم من سيرهم:

"سوف نراهم خلال التاريخ يكبرون تدريجيا لدرجة أنهم أصبحوا الوسطاء
السياسيين بين أوروبا والإيالة (الجزائر العثمانية)، متحصلين على
معاهدات كانت قد رفضت الكل من قبل، وقد اشتروها من الدايات ووزراء،
وأعلنوا حروب من أجل مصالحهم". (235: Grammont, 1887)

الضغوط والعقوبات التي تعرض لها القناصل وأبعادها على العلاقات:

كان دور القناصل هو الجسر أو همزة الوصل بين الجزائر العثمانية والدولة التي
تمثله بشخصه، من خلال المفاوضة. غير أن هذا المعنى للمفاوضة والذي تشير إليه
الكتابات على أنه:

"تقترض المشادة وتبادل الرأي وتمحيصه وصولا إلى اتفاق،
من ذلك ما تضمنه تعريف العلماء للشورى". (شتا، 1996:
(13)

غير أن هذا الاصطلاح لم يكن في الواقع، بحكم عدم احترام كل الأطراف
الشرعية هذا المصطلح:

"وعليه كان القنصل معرض للنتائج الوخيمة في حالة كالتى
حدثت في 1657م لقنصل فرنسا اتهم بالمسؤولية عن
إختلاس لمرسيلى من الجزائري والعقاب المتمثل في غرس
خزعات على أصابع بين الجلد والأضافر". (1: Delof, 1967)
(1)

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

ليتبع بحوادث مشابهة عند هروب المساجين في 1673 على متن سفينة القائد الفرنسي أليراس:

"وتكليف الداي لقنصل فرنسا ديبوا لإرجاع المساجين، ولولا منع القائد القنصل من الرجوع لكان قد تم فيه أمر السجن أو القتل". (Grammont, 1877: 223)

وقد تمّ بالفعل توجيه رسالة عتاب وتلميح بحرب بالأفق في حال تكرار الحادثة التي أذهلت الداي من التصرف الطائش لقنصل فرنسا، وأيضاً نذكر حادثة مشابهة:

"في 1763م عندما اعتدى الفرنسيون على سفن جزائرية كانت بالمرافئ الفرنسية وعليه أمر علي الباشا بوضع كامل الفرنسيين الموجودين بالجزائر ومنهم قنصل فرنسا بالسجن". (الزهار، 1980: 18)

وتمت مراسلة باي قسنطينة لتجريد الفرنسيين من امتيازاتهم بكل من بون والقالّة، ولم:

"يسمح الداي للقنصل فليبر للخروج من فرنسا وطالب حكومة فرساي ببعث عامل آخر بحجة أن الجزائر لا يمكن أن تبقى بدون قنصل ولم يتم إطلاق سراحه إلا بمجيء آخر". (Féraud, 1877: 347)

وفي بعض الأحيان تكون العقوبات حسب طبيعة الحاكم ومزاجه كما حدث مع:

"مصطفى باشا عندما سحب سيفه ليضرب قنصلاً، وأخبر القنصل فالكون الإنجليزي على معاودة الجزائر، وقطعت جميع العلاقات مع إنجلترا". (دودو، 1989: 41)

ولم تكن الحادثة المنعزلة فقد تلتها حوادث أخرى أكثر دموية كما جاءت في إحدى الرسائل:

"سيدي قد تم تقديمي أمام الباشا الذي قال لي إن قام
المارشال بقصف المدينة مرة أخرى، كن متأكدًا أن القنصل
يكون ميت ثم أنتم لاحقًا". (Féraud, 1877: 274)

ولم تكن المعاهدات تمنع البلاء عن هؤلاء القناصل مثل ما جاء في البند الثاني
عشر:

"من معاهدة 1640م الخاصة باحترام شخص القنصل
وتمنحه نفس التشريفات والامتيازات والحقوق التي يتمتع بها
نظرًا في موانئ السلطان". (قنان، 1987: 271)

كذلك تأتي عدة حوادث متفرقة عبر فترات تشهد فيها الجزائر العثمانية نوعا من
الفتور في العلاقات أحيانا، أو سياسة حكيمة تتخللها فترة هدوء في سياستها الخارجية مع
الدول الأوروبية.

كالفترة التي ميزت حكم أحمد خوجة 1805م قام القنصل الإنجليزي بتحريضه:

"وذلك بإعلان الحرب على كل من فرنسا وإسبانيا ولم يكن
له علاقة سيئة معهما وأطلق سراح المساجين المالطيين
ثلاثون سجين دون فدية كما أنه دفع القيمة الكاملة للسفينة
النابوليوطانية". (دودو، 1982: 46)

كانت هذه تصرفات الحكام تحت ضغط القناصل التي استطاعت النفاذ إلى حتى
إصدار القرارات غير أن الأمر لم يكن بتلك السهولة مع طائفة الرياس من الذين تضرروا
من المعاهدات السلمية التي كانت تحرمهم من المداخل والغنائم.

"في سنة 1694م تقدم القنصل الفرنسي بإشعار اختفاء
سفينة فرنسية قادمة من غينيا وأسرها جزائريون".
(Develeux, 1869: 18)

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

فقد كانت طائفة الرياس بعيدة عن المساومات والابتزاز السياسي المتبع من طرف القناصل، ولعل هذا ما ميّز سياسة الجزائريين إزاء الفرنسيين وعدم تسليم طوقهم لهم بالعكس لم يكد يخلو المستعد السياسي من مشاحنات ومصادمات مع الفرنسي طيلة قرون. ولولا قانون الامتياز العثماني لهم، لكان الأمر مخالف للواقع تماما.

"ولولا تخوف هذه الأخيرة من هذا الضغط، لذلك لم ينزعجوا من تهديدات السلطان ولا الفرنسيين وللجزائر أسباب جعلتها تشكك في نوايا فرنسا نحوها". (قنان، 1987: 45)

ولم يمنعها هذا من سحب وإيقاف جريان هذه في عدة مواقف، تخص منها تدخل القنصل وإثارته،

"الشكوك حول نوايا بريطانيا التي وصفها بالعدو الأكثر خطورة من العدو نفسه للإيالة ليتم تجميد رغبة الداي في إعطاء إنجلترا الموافقة لبناء محطات تجارية بوهران مقابل مساعدة أسطولها لرد الهجوم الإسباني عنها". (Grammont, 1887: 293)

قضية تقبيل اليد للقناصل والتحية بالموائ:

تعتبر من أهم القضايا التي نخرت كبرياء القناصل، وكانت الهاجس لهم لعدة سنين وكانت أهم نقاط قمة أكس لاشبل 1818م، فقد كانت أهم هاجس مس هيبة ووقار القنصل:

"إن شخصية القنصل تحترم ويتمتع بنفس التشريفات والامتيازات والحقوق التي يتمتع بها نظراؤه في موائ السلطان". (قنان، 1987: 271)

استطاع الأوروبيون فرض الاحترام لشخصية القنصل باعتباره ممثل لدولتهم على أن يتم تحيته في الميناء عند رؤسوا باخرته.

"لتبدأ هذه المراسيم بوصول السفن الحربية الأجنبية ورسوها
بميناء مدينة الجزائر بإطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفعية
ويقوم الأسطول أو السفينة برد التحية بعدد مماثل من
الطلقات". (بليل، 2011: 58)

ولم تكن هذه التحية المدفعية في الموانئ إلا إجراء منفرد، أما في حضرة الداي أو
الباشا فقد كانت تحية القناصل لهم بتقبيل اليد، وأي رفض يتم طرد القنصل بدون
تقصير:

"في 1767م القنصل الإنجليزي فريزر رفض خلع نعليه
والتخلي عن سفيه وتقبيل يد الداي ونتيجة لسلوكه المتعجرف
أعاده الداي إلى بلده". (العربي، 1978: 35)

ردود الفعل العسكرية:

تجلت هذه الردود من خلال مجموعة التحولات من حليف إلى عدو أثناء فترات
تدخل فيها معطيات

"عما وصفه قودفري أن القناصل بأهميتهم ومناصبهم
وذكائهم يستطيعون سواء المحافظة أو إعلان حرب أو سلم"
(Godfrey, 2000:207)

ويظهر جليا هذا من خلال الأحداث وانعكاساتها، ففي الفترة الأولى من عهد
الجزائر العثمانية فرنسا كانت هي المقربة الوحيدة للجزائر العثمانية وانعكس هذا من خلال
موقف الحماية الذي انتهجته الجزائر العثمانية إزاء فرنسا.

"تمويل صالح رايس بأكبر عدد القاليونات والجنود لمحاربة
عدوه فيليب الثاني ملك إسبانيا" (Haëdo et a bbe: 93)

وما زاد بثقتهم بنفسهم وتفردهم في المنطقة هو تكفل فرنسا بتمثيل كل الأمم
المسيحية.

"وذلك ما صوره الأب دان بالقضية المقدسة للأمة الفرنسية،
بداية 1535م وذهاب الأساقعة إلى الجزائر وافتداء خمسون
أسر فقط، ليكفلوا بالبعثة بدافع التصرف الديني المقدس"
(Dan, 1646: 319)

وتوالى الإرضاءات الجزائرية لفرنسا من خلال طلب هنري 1552م من اليليرباي
"إغلاق السواحل الإسبانية بالمقابل العمل بالمثل ومساندة
أسطول درغوت لإيقاف وشل سفن الدوق ألب وبدأ من سنة
1553م" (Grammont, 1887:79)

وكان هذا التحالف يخدم مصالح فرنسا أكثر ما هو للجزائر العثمانية ليتخلله
رضى أو غضب وانتقام.

"في سنة 1647م عند فشل الأسطول الجزائري بمعركة في
البحر أمام فرسان مالطة بتدخل البنادقة صب الباشا غضبه
وزج القنصل الفرنسي في السجن بعد فقدلهم حوالي 250
رجل و150 أسير" (Mercier, 1888: 238)

ولم يكن الحكام الجزائريون دائما هم المتمردون في بادئ الأمر فقط كان لفرنسا
أسبقية في ذلك.

"مثل مذبحه الوفد التجاري الجزائريين بمرسيليا في مارس
1620م حيث تجاهلت المراسلات الدبلوماسية" (قنان،
1987: 58)

وتجاوزهم لكل الاتفاقيات ونشوب مناوشات بحرية اتسمت بالكر الفر لتشهر أمام
أبواب الجزائر العثمانية.

"قرر رشليو بملاحقة قراصنة الجزائريين بتنظيم حملات
ضدهم وكاتب سفينة غزال فرنسا قد حققت انتصارات، وفي

1637 فشل القائد في المفاوضات ليقود الأسطول إلى حوض المتوسط" (Masson, 1903: 100)

"حملة دوكين 1648م ولم يكف حتى دفع له مليوني ومائتي ألف قرش وأطلقوا سراح أسرى الفرنسيين" (المحامي 1988: 302)

وكل هذه التدخلات العسكرية كان لها عدة مآرب غير التي تمت بسببها وهو إضعاف الجزائر العثمانية وتكبيدها لخسائر في المدينة لينقم الأهالي على الحكام، غير أن الجزائر العثمانية لم تكن بذلك الضعف، فكل مرة كانت تعمل جاهدة للوقوف أمام الصعاب كما جاء في الكتابات الأجنبية.

"في 27 أوت الحملة بقيادة اللورد إكسمورث، هاجم الجزائر وأحرق الأسطول الجزائري، سبعة أيام بعد الدرس القاسي للذين تلقوه كانوا الجزائريون منشغلين أنفأ في إبحار سفنهم" (Develeux, 1869: 36)

"في وقت لويس الرابع عشر وحده عشر غارات واسبانيا عشر غارات وبريطانيا سبع غارات منها اثنان قادهما الأميرال نيلسون 1802-1804" (نايت بلقاسم، 1985: 64)

"حملة الدوق بوفور 1663، بدأ بمطاردة بحارة الإيالة (الجزائر العثمانية) وأغرق ما يقارب عشرين مركب وأجبرهم بالتزام في موانئهم، ثم شن حملة أخرى في السنة التالية على الساحل المتوسط" (piquet, 1830: 35)

ولعل قطع العلاقات مع فرنسا وإعلان الحرب كان في معظمه بإعاز من الداوي بنفسه حسب المصادر الأجنبية التي ترجعه إلى نوايا الجزائريين في البحث عن أية ضريبة لوقف المعادة وإعلان المطاردة

"حقيقة لم يتطلب الأمر سوى لأضعف تبرير لإعلان الداي
لحالة الحرب أو أحيانا يبدوون بافتعال الإزعاج من أجل
الحاجة إلى للغنائم" (Pellissier, 1836: 14)

ولضعف البحرية الفرنسية أثر في كونها كانت لقمة سائغة لرياس البحرية الجزائرية
غير أن هذا الضعف لن يستمر مع وصول الكاردينال ريشليو المشهور في التاريخ
السياسي الفرنسي.

"1625 والذي كان يسعى لإعلان شأن فرنسا دول أوروبا"
(النوار، جمال الدين، 1999: 16)

ومع تصاعد الاحتجاج الفرنسي ضد البحرية واعتدائها على المراكب الفرنسية تم
تحسين الأسطول الفرنسي في 1663م وقام قائده بوفو بملاحقة المراكب الجزائرية.

"وكبدهم خسائر هامة، وما حفزه في البحث عن ميناء
لأسطوله وكان جيجل الطبيعي وبقي لمدة ثلاثة أشهر
ليضطدم في 1665 بالأسطول الجزائري الذي ألحق بهم
أكبر الخسائر مثل التي تكبدها شرلكان" (Nettement, 1867: 106)

ورغم كل التدخلات والمساعي الفرنسية من أجل الحد من الحملات ضد سفنهم
بدون جدوى.

"بإثارة من الرياس للعنف سواء التأجيج للرد الفعل الجزائري
حول مسألة البستيون الفرنسي أو في حالة حرب التي يجدون
فيها سبلا لمطاردة السفن الفرنسية" (Boyer, 1973: 163)

كما أن الردود العسكرية الجزائرية دائما كانت تأتي حتى يتبينوا مدى خيانة
الفرنسيين لهم وسوء نواياهم اتجاه احترام الاتفاق وقد تجسد كل حوادث متفرقة أهمها:

"تقتيل وذبح الجزائريون طلبوا الذهاب في سفينة فرنسية إلى فرنسا وفقا للسلم القائم لينعم، ثم أسر جزائريين وباعتهم في سوق الرقيق بإسبانيا، أما الثالثة فهي في 1629 استيلاء السفير الفرنسي العائد من المغرب على سفينة جزائرية، فألقي القبض على نائب القنصل والفرنسيين، واستحوذ الجزائريون على المراكب الفرنسية ونظم الرياس هجمات مظفرة على شواطئ بروفانس" (الميلي، 1966: 162-163)

كما أن الجزائر العثمانية لم تكن محطة لحملات فرنسية إنجليزية فقد وجهت لها حملات عسكرية من كل هوب، فحتى أن بعضها لم يذكر في المصادر كما جاء في الحملة الإسبانية في 1801، والتي باءت بالفشل بسبب هبوب عاصفة بحرية برياح قوية جعلته ينسحب

"هذا الطقس المحزن استمر لعدة أيام والأمير يراقب بعناية متأملا في احتمال رجوعه إلى الإيالة (الجزائر العثمانية) بسبب كان مألما له في رؤية فقدانه انتصار كبير بسبب سوء الطقس" (Conestaggio, 1882: 23)

لم يخلو المشهد اليومي من حوادث لتغلب موازين الصلح والتفاهم وأغلبها من الجانب الفرنسي.

"في سنة 1817م مركب فرنسي يحمل حوالي 42 حصان لثورة بالرغم من منع هذا من طرف الباشا، الذي توعده بقتل الضباط في حالة إعادة الكرة" (Féraud, 1877:101)

ومن حسن الحظ الجزائر العثمانية أن الدول الأوروبية كانت دائما في اضطرابات وجمالة حرب بينهم مما استتفز من خزائنها وجنودها وان كان العكس لأنتهت الجزائر

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

العثمانية لكثرة الحملات عليها لتشغلها بدورها هذا التطاحن الأوروبي والهدوء النسبي في حوض المتوسط.

"انشغال أوروبا بحروب نابوليون لتمكن حكومة الدايات من تجنيد قواها والتفرغ للقضاء على الثورات الداخلية"
(سعيدوني، 1979: 60)

"بالإضافة ظهور على فترات منقطعة لرياس البحر مشاهير أعادوا للبحرية الجزائرية مجدها سواء في دحر العدوان مثل هجومه على البحرية التونسية 1808م" (سعيدوني، 1979: 62)

كما أن العداء زاد من حدته اتجاه الدولة العثمانية وخاصة بعد ظهور نجم روسيا، وسياسة استقطاع الأراضي الأوروبية للأقوى، للتحول تلك المصادمات إلى البحر الأبيض المتوسط.

"أزمات الداخلية في أوروبا 1671م كان لها الدور في تحولها إلى قلب البحر الأبيض، ليزامن ذلك تقهقر الأسطول الجزائري الذين جاؤوا لمساعدة السلطات في الحرب الكريمية"
(وولف، 1980: 142)

أما من الجانب الإنجليزي فتكررت خييات أمله، فأول حملة لها ضد الجزائر العثمانية كانت برعاية الملك جاك الأول.

"بإعاز من إسبانيا، غير أن حملة 1655م تكللت بالنجاح وبدون قصف المدينة، واستقبل الداوي القائد الإنجليزي بحفاوة، حتى أنه بعث بقطيع من الحيوانات إلى السفينة وتم إطلاق صراح الأسرى (playfair, 1878:319)

"إن عقدها في 1662 معاهدة لسلام بدون شرف أمام انهزام وتفهمر الأسطول الانجليزي" (Mercier, 1868:253)

كما أن انجلترا لم تنفك عن استغلال كل القطيعة، ميزت تلك العلاقات الجزائرية الفرنسية خاصة بعد نجاح نابليون وتخوف أوروبا من سياسة توسعية، وعليه عوضت انجلترا الحماية للإيالة 1812 (شالير، 1982: 140)

وكان وراء هذه المخاوف الانجليزية هو إشغال فرنسا على الجبهة الجنوبية لها وفي البحر المتوسط وإضعافها وقد أصبحت في أوج قوتها من خلال الثورات التي خاضتهم فيما بعد، لتبدل انجلترا من موقفها وتصبح صديقة الدولة القوية بدلا من تكون العدو لتوجه حملة ضد الجزائر لإثبات حسن النية.

"حملة الأميرال الانجليزي إكسمورث في أبريل ثم أوت 1816م ضد مدينة الجزائر ليتبع بعقد معاهدة بين القنصل الإنجليزي والإيالة (الجزائر العثمانية)" (Rosseau, 1841)

بعد الحملة الأنجلو هولندية التي قادها إكسمورث وأحرق خلالها كامل الأسطول الجزائري، قام القنصل الفرنسي بإرسال بعثات والتي سوف تعطى الدعم لإعادة تجميع قطع سفن في الأسطول

"في سبتمبر 1816 بعث القنصل الفرنسي ببعثات لكل من رايس أحمد بريك 22 مدفع، وإلى رايس محمد لغليوطة تضم 18 مدفع ولا أعرف إن كانوا غائبين خلال الهجوم أو نجوا من الحريق" (Develeux, 1869: 36)

حصن البستيون:

من مقومات الامتيازات هو حصن البستيون (le Bastion) أسسه المارسلان كالفن ديدي Calvin Didier وتوماس لنش Thomas Linche مقرا رئيسيا لنشاطهما.

"بستيون فرنسا وقالة، يعتبر مركز تجاري ناجح مختص بصيد المرجان والتجارة القديمة" (Feraud,, 1877: 74)

"في 1561 هذا الحصن لم يسهل بنشاط كل من التاجرين كديدي ولنش، ليسقط فيما بعد لإهمال تحصينه لكن في 1688 أعيد بناؤه من طرف السيد صامصون نابولون لجعله في أحسن وضع" (Dan, 1646: 57)

"ويقع على شاطئ يبعد عن القالة بثلاثة أميال غربا" (العربي، 2011: 36)

ولم يكن الوحيد كمحطة تجارية على السواحل الجزائرية.

"تم بناء بستيون آخر بالجزائر 1576 في عهد البشا رمضان، علج سوديني، وكان في أحواز المدينة على غرار البستيون في القالة لكنه هو الأهم" (Héado, 1879: 27)

"وكان في الأصل موقع اسمه الخرز وكان مأهولا من طرف تجار أقرباء في سنة 960م من أجل بيع المرجان" (Primaudaie, 1860: 9)

"هذه المدينة مرسى الخرز القديمة تم تدميرها من طرف روجي دو لوريا في 1286م، ولم تجدد بعدها، وينقل الأب دان أنه لم يبقى بجوارها غير قرية للموركسين يسكنون في خيام" (Feraud, 1877: 93)

كما أن هذه المحطة لم تكن محل أنظار الفرنسيين فقط، فقد كان احتدام الصراع عليها كبيرا جدا.

"وكان منافس الفرنسيين الأقوى والأقدم في المنطقة هم الجنوبيون غير أن امتياز فرنسا لدى الباب العالي كان

بإمكانه جعلها محطة لولا الظروف التي وجدت بها، وتم
تخطيطها أولاً في 1551م من طرف صالح رايس"
(Mercier, 1869: 150)

ولعل هذا التعرف كان بسبب أن الفرنسيين فيما مضى قد وقعوا معاهدة التجارة مع
قبائل الساحل في حق صيد السمك والمرجان، غير أن استقرار الحكم للعثمانيين في الفترة
ما بعد المعاهدة، جعل خليفة خير الدين، صالح ريس يأمر بتخطيط الحصن وعليه قامت
فرنسا بإجراءات أخرى وهو التعامل مباشرة مع حكام الجزائر العثمانية بدلا من القبائل

"تخطم بستيون الفرنسي لأول مرة في سنة 1551 بأمر من
صالح رايس خليفة بربروسي وهذا الهجوم فرض على الشركة
التعاقد مع القوى المنظمة بما أن المبادلات مع القبائل لم
تكن كافية" (Masson, 1903: 3)

وقد كان هذا البستيون محل خلاف كبير وتمت عدة مراسلات في هذا الشأن بين
الجزائر العثمانية والباب العالي.

"والملك الفرنسي، ولعل حادثة 26 سبتمبر 1606م عندما
قدّم القنصل الفرنسي من تونس إلى الجزائر ومعه مصطفى
آغا القائد التركي المرافق له، ليملي على الديوان الوصايا
التي تنص على حرية الأسرى وإعادة البستيون لفرنسا،
فثارت عليه الانكشارية وكاد يفقد حياته هو والقنصل"
(Feraud, 1877: 109)

فشكلت كل هذه الأحداث لاستغلال البستيون فصولا في الكتابات الأجنبية وما كان
عليه من دور تجاري هام، كما جاء في تعليمات أحد بابوات الفرنسيين وإشاداته ببعض
الأفكار دون اللجوء إلى القوة.

"أنا لا أريد إفريقيا لفرنسا، احتفظوا فقط بالساحل الجزائري
بون، وهران، الجزائر وقوموا ببناء محطات بحرية في الجزائر

أو سطورة، ليكون لكم ملجأ في زمن الحرب، واهتموا به
لتبرزوا في أعين أوروبا نيتكم في احتفاظكم بالجزائر، مهما
كلف من نقود أحسن من صرفها في الحملات" (Rang, 1857: 352)

غير أن الجزائر العثمانية أخذت بزمam المبادرة وبنّت نفسها هذه المؤسسة بالرغم
أنه ينافي القانون.

"بإقامة أية بنايات على أرضها، لكن الجزائر سمحت لهم
بذلك، للاستفادة من العوائد" (العربي، 2001: 36)

ولم تكتفي بذلك فقد قاموا بحماية المؤسسات من خلال وضع حامية بالمحطة.

"وتم تجهيزها بـ 800 جندي فرنسي لحماية المركز" (الميلي،
1966: 156)

وكانت النتائج وخيمة على هذا الحصن في حال أساءت فرنسا للجزائر العثمانية.

"عندما أراد الأميرال 1637 استعادة الأسرى من سجون
الإيالة (الجزائر العثمانية) تحطم الأسطول ووجد نفسه وحيدا
أمام المدينة، ليتوجه على بتشى إلى البستيون ويفرغه عن
آخره ويأسر ثلاثمائة وسبعة عشر" (Dan, 1646: 56)

العوامل المشجعة لهذا لصراع:

اتسمت الساحة السياسية التي عاشتها الجزائر العثمانية في خضم الانعكاسات
الناجمة عن ذلك الصراع القائم بين كل من فرنسا وإنجلترا إلى تحول خطير على سيادة
الجزائر العثمانية، مما جعل حكام الجزائر العثمانية ينتهجون آلية الدفاع والهجوم أكثر ما
تكون دبلوماسية في أغلب الأوقات، دليل على حزمها مع كل دولة تخل باحترامها أو
اتفاقها نحو سيادتها وخاصة في ظل استغلال هذه الدول لكل ما يحدث فيها واستعماله
لإضعافها كما استعملته مع بعضها البعض في مآمراتها وحروبها الأوروبية.

"كتدخل الانكشارية في أمور البلاد ودورهم في مصير الحكام وكل من حاول المساس بمصالحهم وامتيازهم العزل أو الاغتيال". (Tassy, 1646: 207)

"وخاصة عدم دفع الرواتب" (محرز، 2011: 78)

لذا انكب الحكام في تحصيل الأموال، لتستغل الدول المنافسة لهذا التزعزع الداخلي لما كانوا ناقلين.

"من طائفة الرياس الذي كان يرجع لهم الفضل في هبة الإيالة (الجزائر العثمانية) واغتنائها من المداخل البحرية وذلك أنهم في أصل تلك الشخصيات القيادية للأسطول البحري من جنسيات أوروبية". (بلحميسي، 1999: 194)

كما استغلوا الهوية بين اليهود والانكشاريين خاصة بعد قانون 1580م في عهد جعفر باشا.

"تحت طلب الانكشارية توقيف كل اليهود الانكشاريين وإعفائهم وقد كان عددهم مئة بسبب أن اليهود انخرطوا في الانكشارية بداعي حماية إخوانهم اليهود في حالة الاضطهاد فقط" (Haëdo, 1870: 57)

ولعل هذا للقرار كان صائبا لما حمل في طياته من استرسال بصيرة الحكام في منع العنصر اليهودي التغلغل في الجيش ولو استمر الوضع لكانت النتائج وخيمة ولا كان عُمر الجزائر العثمانية أقصر بكثير لما آلت عليه من ازدهار وقوة رغم ما اجتازته من حملات عسكرية ومآمرات مسيحية.

"وقد كان الوكلاء في العقود الأولى لا يقيدون في سجلات التجنيد إلا العناصر التركية المسلمة" (Paradis, 1983:)

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

وقد كانت هذه العناصر عبارة عن أسرى حرب من كل البلاد تمت تربيتهم بطريقة صحيحة ودينية وكان لهم الفضل في الفتوحات العثمانية في البلدان الأوروبية وسميت بالإنكشارية

"الوزير قرة خليل المعروف بخير الدين فرز فصل أسرى الحرب عن كل ما يذكرهم بأصلهم، وتربيتهم تربية إسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أبا إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله" (المحامي، 1988: 123)

ولعل طول عمر العثمانيون وبقائهم في الجزائر العثمانية وخاصة في الفترة الأولى أقصى العنصر اليهودي من شدة الحكم والجيش إلى غاية الفترة المتأخرة من الجزائر العثمانية، ومع تفاوت طبيعة الحكام من شخصية متسامحة إلى عصبية.

"شخصية ميزو مورتو عندما تحدى فرنسا وضرب عرض الحائط حضرتها عند الباب العالي وهددها بالحرب التي ينتظرها بثقة وقطع العلاقة معها في حالة عدم إرجاع الأسرى المسلمين سجونها" (Rosseau, 1841: 89)

مما أدى إلى حملتين على المدينة، فيكمن القول أن طبيعة الحاكم أو القنصل هي السبب المباشر للحملة العسكرية في معظم الأحيان.

"في عهد الباشا مصطفى عندما اغتاز من القنصل الإنجليزي وأمره بالذهاب إلى بلده غير أن الإنجليز رفضوا وأعلنوا العداوة بعد أيام قدمت العمارة الإنجليزية ثلاثون جفنا وتكلموا معه لإرجاع القنصل فلم يقبل منهم إلا القتال، ثم قبلوا من غير قتال وغير الإنجليز القنصل وقبلوا الشروط" (الزهار، 1980: 79)

لنتجلى مظاهر القوة من خلال حكامها في بعض الأحيان لتفرض هيبتها في البحر وأمام الدول.

"فرفضت تسليم البنادق من وقت الجمهورية كانت قائمة
والفرنسيين إلا بعد مجيء السفينة الجزائرية وطاقمها التي
أسرت من طرف التحالف الفرنسي الإسباني" (Berbrugger, 1872: 5)

ومن العوامل المآمرات بحد ذاتها ساهمت في الكثير من المضامخات الدولية.

"حيث تكلفت بالنجاح محاولة الإنجليز لإحداث القطيعة بين
الحكومة الفرنسية والداي وذلك بمساعي قنصلها وإشادته
بتمسك إنجلترا ب صداقتها القديمة مع الإيالة (الجزائر
العثمانية) وعدم خضوعها لتهديدات فرنسا من أجل قطع
علاقتها والاتفاق المقدس وإعلان الحرب وتعكير هدوءها"
(Plantet, 1887: 44)

ولم تتوقف هذه المآمرات إلى حد المراسلات الدبلوماسية فقط وإنما ترجم لواقع
أضرّ فرنسا.

"من خلال سحبها استثماراتها لمرجان القالة وبون وتعويضها
بعدوتها إنجلترا لتصبح سيدة المتوسط سنة 1806م"
(Feraud, 1877: 589)

وفي حادثة أخرى تضررت منها فرنسا وإنجلترا معا، لأن الجزائر العثمانية لم
تتعاون مع أي دولة.

"عند تداول إشاعة في فرنسا على أنه تم سجن القنصل
الفرنسي بالإيالة (الجزائر العثمانية) ليتم إيقاف السفن
الجزائرية بمرسيليا" (Feraud, 1877: 589)

"لِتم تحويل الاتفاق مع الإنجليز وتمكين السفن النابوليونية بصيد المرجان ليصبح الإيطاليون أكبر كمية من المرجان بالمقابل الفرنسيين" (Poirret, 1980: 18)

إضافة إلى العوامل الخارجية مع كل من فرنسا وإنجلترا، توجد عوامل داخلية أجشت من نار الصراع الخارجي وذلك لعدم قبول السلام مع هذه الدول وذلك بسبب قلة المداخل في حالة السلم والمعاهدات، ما يعني إثارة الانكشارية ثم عملية اغتيال الباشا أو الداي التي تكون أول مظاهر التمرد الداخلي.

"عرض الهولنديون والإنجليز والإسبان والصقليون على علي باشا عقد السلم، وقدموا له هدايا ضخمة، ثم تبعتهم الدانمارك والسويد، لكن علي باشا كان يدرك أن القرصنة تمثل المورد الأساسي للدولة، وأنه بدون قرصنة لا يستطيع دفع مرتبات الجيش" (الميلي، 1964: 210)

مسألة الأسبقية ودورها في الصراع والمآمرات الفرنسية الإنجليزية:

لم يشمل الصراع بين القناصل المنافسة التجارية بل كان هناك صراع حول الأسبقية، فإذا عدنا إلى جذر المسألة،

"قإننا نربطه بنشوء ظاهرة بين القناصل بتصرفاتهم الغير لمسؤولة وذلك في إطار التسابق نحو الأفضلية وقد كان امتياز منح لفرنسا بموجب هذا الاتفاق صلاحيات واسعة على جميع المسيحيين في الموانئ العثمانية" (وولف، 1980: 241)

وعلى ضوء هذا الامتياز كان قد قَدّم امتياز لفرنسا في أسبقية التهنئة في المناسبات وتقديم المجاملات.

"وهذا في القديم كان تخاصم قنصلا الإنجليزي والفرنسي على السبق بالتهنئة ووقع ما وقع بينهما فأمر الأمير يومها بأن يهنئ القنصل الفرنسي ليلة العيد وقنصل الإنجليز يوم العيد وأصبحت تلك العادة" (الزهار، 1980: 164)

وحسنت الجزائر العثمانية هذا الصراع والتنافس بتقديم قنصل فرنسا في مقابلة خاصة للدييات ليلة الأعياد وهذا أصبح تميزا له عن بقية القناصل، وعليه أصبحت عادة لا يمكن تخطيها لتتجر عليها حوادث.

"مثل حادثة تسابق عربتي كل من السفير الفرنسي والإسباني واصطدامهما في 30 سبتمبر 1661م مما جعل الملك الفرنسي لويس الرابع عشر يقطع علاقات مع إسبانيا وهدد بإعلان حرب في حال عدم اعتذار إسبانيا" (Haëdo, 1965: 99)

ولم تكن حادثة العرشين الوحيدة فقد شهدت الجزائر العثمانية أحداث أخرى مثل:

"القنصل فالكون والمعروف بالقنصل المجنون في حادثة مع نظيره الفرنسي، عندما حمّله على ظهره وأعادته إلى مدخل القصر عندما تسبق على سلاّم القصر من أجل حضوره الأول لمقابلة الداي" (بليل، 2011: 74)

ويمكن إرجاع مبدأ الأسبقية إلى تلك الاتفاقيات المبرمة بين فرنسا والجزائر العثمانية والتي أعطت الحق لهم:

"من خلال البند الرابع عشر من معاهدة 1719م وكذلك البند السادس عشر من معاهدة 1801م الموقعة دولوا دو تانفيل" (بليل، 2011: 75)

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

كما أن فرنسا لا تكاد تقوت مناسبة وتتقرب إلى الداي والديوان لغاية تذكيرهم بأحقية الأقدمية لهم والتي كسبتها عن طريق المعاهدات كالتى في سنة 17 ماي 1666 والتي تنص على:

"فالقنصل الفرنسي سيتمتع بحق الأولوية والسبق على غيره
من القناصل" (قنان، 1980: 343)

غير أن في حقيقة الأمر لم تكن الجزائر العثمانية بتلك السهولة وخاصة أن الفترة الأولى من عمرها عرفت شخصيات قوية ومعادية للمسيحية مما أكسب الجزائر العثمانية القوة والهيبة لما جاء في كتابات:

"منذ مدة طويلة فهم كل من الإنجليز والهولنديين الأوضاع
واستسلامهم لعدم جدوى استعمال القوة، بالمقابل التقرب من
الباشا بواسطة الهدايا بالأشخاص الأكثر نفاذا في الأجواق"
(Grammont, 1882: 131)

وأحيانا يظهر بعض الانفراج لدى الدول الأوروبية اتجاه الجزائر العثمانية باعترافهم لمواقفها الإيجابية نحوهم:

"في 1786م فرقاطة برتغالية تلاحق قرصان جزائري حتى
جبل طارق وتغرق سفينته، ليقوم قائد الحامية الإنجليزية
بجبل طارق بأخذ طاقم السفينة الجزائرية وإرساله إلى الجزائر
ومعه قائد طالبا من الداي تحصيل الخسائر والتي من العدل
استحقاقها حسب المعاهدات، وكاتب القنصل لندن ليشرح لهم
أن الإيالة (الجزائر العثمانية) تستحق أكثر من المبلغ المعلن
عليه لما قدمته من المؤن لهم في حربها الأخيرة" (Paradis, 1898: 135)

كما أنه خلال الحرب التي دارت بين فرنسا وإنجلترا والتي سميت بحرب سبع سنوات عرفت الجزائر العثمانية بعض الهدوء لانشغال الدوليين بأوضاعهما فمن الجانب الإنجليزي.

"خلال كل الفترة الممتدة من معاهدة السلام إلى غاية انتهاء حرب السبع سنوات، ممكن اعتبارها فترة الأكثر ازدهار وفائدة لعلاقتنا مع الجزائر العثمانية رغم قلة تجارة المفوضين الإنجليزي إلا أنها مارست تأثيرا هاما على العلاقات الخارجية" (Godfrey, 2000: 386)

كما يمكن اختصار أصل هذا الصراع في كلمات أحد المصادر الأجنبية التي لخصت النتائج التي وصلت إليها الجزائر العثمانية بسبب تكالب الدول المسيحية عليها وعلى رأسهم فرنسا وبدعم إنجلترا عدوتها القديمة.

"الحملة على الجزائر أعطت اجتماعات برلمانية كثيرة بسبب النقاشات التي أجشتها في كل الغرف، منها الدبلوماسية بسبب مفاوضات حكومة شارل العاشر والقوى الأوروبية خاصة إنجلترا، محتلة كل الاهتمامات الإقليمية البحرية وأيضا كل الأمم المسيحية المطلة على الحوض المتوسط" (Nettement, 1867: 2)

لم يمنع المد والجزر في العلاقات الخارجية مع كل من فرنسا وإنجلترا وكل المنافع التي استفادوا منها جراء هذه التعاملات الاقتصادية وخاصة في أزماتهم الداخلية والحروب فيما بينهم، لتكون كبش الفداء أمام توحيد الأوروبيين ضد الجزائر العثمانية وإن أصبحت اسمية.

خاتمة

خاتمة:

بعد استعراض موضوع الصراع الفرنسي الإنجليزي حول الجزائر وفي سياق ربط الأحداث التي جرت بين الخلافة العثمانية والدول المسيحية، وذلك من أجل الوصول إلى حقائق الصراع الذي ألقى خلاله على الجزائر العثمانية، فاعتبارها إقليمًا تابعًا للدولة العثمانية، وإن اختلفت الآراء في المصادر حول حقيقة هذا الصراع ومدى انعكاسه على العلاقات الدولية آنذاك ليتحول من صراع للفوز بالامتيازات لدى الباب العالي ليتبلور ويتطور ليصبح صراعًا مباشرًا على أرض الواقع، ويتطور ليصبح صراعًا سياسيًا وعسكريًا في أغلب الأوقات، ولعل تسارع الأحداث غير مسار هذا التسابق من احتكار في تجارة المرجان، والقمح، ليتطور إلى احتكار في الأرض والمطالبة بالحقوق وكانت فرنسا هي السبابة لهذا.

وسجلت حضورها في الجزائر العثمانية وربما تكون هي المستفيدة الوحيدة في بادئ الأمر مع حضور محتشم لكل من النابليون والإيطاليون، في مراكز القالة وبون، جيجل، باعتبار أن الاقتصاد هو عصب حياة كل دولة وذلك أن أهميته تكمن في تأثير الاقتصاد على الأوضاع السياسية ومدى تأثيره في قلب موازين القوى في الدولة داخليًا وخارجيًا، لذا رجحت فرنسا بكل ثقلها ودهائها السياسي والدبلوماسي في الحفاظ على امتياز في البلاط العثماني لتستطيع المحافظة على حق تواجدتها في الجزائر العثمانية بموجب اتفاقيات الامتيازات المبرمة مع السلطان سليمان القانوني وتمسك أحفاده بالوصية.

وإن كانت من أحد الأخطاء التي ارتكبتها السلاطين العثمانيون في هذا التفضيل الذي كان سببًا في أفول دولتهم. ولعل شهادة أحد الضباط ورأيه في تواجد العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط هو راجع للجرائم الفضيعة التي ارتكبتها الإسبان في حق الأهالي هو ما عجل ظهور العثمانيين التي أصبحت هاجسهم فيما بعد. ولولا تصرفهم هذا لما صنعوا لأنفسهم وحش البحار وهم العثمانيين حسب رأيه.

لم تدخر أي دولة مجهودًا من أجل فرض وجودها في الجزائر العثمانية سواء فرنسا التي استعملت طوق الامتيازات المبرم مع السلطان سليمان القانوني والذي حافظ سلفه

عليه، أو إنجلترا التي ميزتها علاقات طيبة مع الباب العالي وحتى مع الجزائر العثمانية وخاصة أن حضورها في المنطقة جاء في فترة متأخرة ولم تكن حليف السابق للإمبراطورية الإسبانية العدو للدود للجزائر العثمانية ولم تلق صعوبات في التعامل مع الحكام في الجزائر العثمانية، غير أن وجودها كان هو المشكلة في حد ذاتها بالنسبة للفرنسيين وتهديدا لمصالحهم الاقتصادية لتكون النواة الفعلية لبداية الصراع حول التواجد، والتقرب إلى الجزائر العثمانية بمعنى الحصول على معاهدات أكثر مرونة وبأقل شروط.

وقد عزز هذا التقرب بمجموعة من الترضيات تمثلت في الهدايا الثمينة، والأسلحة والذخائر رغم معارضة البابوية لهذا النوع من الهدايا التي كانت تستعمل ضد دول مسيحية معادية للجزائر العثمانية، فقد كانت المصلحة الشخصية هي سيدة الموقف.

ومع تسارع وتيرة الأحداث من مد وجزر استهدفت الجزائر العثمانية في كل مرة بحملات عسكرية محاولة لكل دولة بإخضاع الجزائر العثمانية للصالح أو التوقيع على شروط تملأها خسارتها أمام الأساطيل التي كانت تلوح أشرعتها في البحر الأبيض المتوسط، غير أن هذه الحملات والقصف الذي كانت تتعرض له الجزائر لم يضعف من عزيمتها بل تذكر أحد الكتابات استهزاء الداي عندما علم بالتكلفة الباهضة لحملة فرنسية على الجزائر العثمانية دون إحداث أي تغيير في موقفها إزاء فرنسا، أو حتى في المباني، سخر منهم قائلا: "لو أعطوني المال المكلف، لهدمت المساكن بيدي".

إذ كنا توصلنا في بحثنا هذا إلى أن قوة الجزائر العثمانية ومكانتها عرفت تذبذبا مع مرور الزمن والأحداث، لكن لم يقلل من قدرتها أو منزلتها في الحوض المتوسط، ولم تكن قابلة للأفول، لولا الأخطاء السياسية التي سمحت بتغلغل النفوذ اليهودي، في سدة الحكم الذي كان السبب المباشر في سقوط اقتصاد عصب الحياة للدولة، ويكون الذريعة والحجة التي سعى وراءها الفرنسيون إلى تنفيذ مخططهم القديم في احتلال الجزائر العثمانية والذي كان أحد مشاريع نابليون القاضية بقطع الطريق المتوسطي على إنجلترا أو السيطرة على المنطقة بأكملها.

ولم يكن الشريط الساحلي المرجاني الذي تكالبت عليه الدول لاستثماره وجني أرباحا طائلة من ورائه هو السبب المباشر في تدهور الجزائر العثمانية، فقد كان تعاملها مع كل الدول ضمن شروط دولية، ولم يعرف تذبذبا إلا بعد فرض أصحاب الامتيازات الفوضى ليتراجع قيمة هذا المورد واستنزافه مقابل مصالحهم الشخصية على حساب اقتصاد الجزائر العثمانية ولم يشجعها إلا طمع وجشع الحكام الذين بيدهم الأمر كله، وتغلغل الفساد في أنفسهم مع ظهور أزمات واضطرابات داخلية من ثورات محلية أو دينية، بالإضافة إلى الأوبئة والمجاعة وعدم تمكن الحكام من إصدار خطط لمنع وحصر كل هذه المخاطر، عجل من سقوط الجزائر العثمانية في عدة مواضع، غير أن الزمن كان في كل مرة كفيل بإظهار شخصية حاكمة وفذة لتتحمل مآمر الجزائر العثمانية وإخراجها في القاع الذي تسبب فيه ذوي النفوس الجامحة.

فلولا العصر الذهبي الذي ميّز عمر الجزائر العثمانية خلال فترة حكم البيلربايات وغيرتهم ونزعتهم الجهادية الإسلامية في ظل التطاحن والتنافس الذي عرفه العالم المسيحي في تلك الفترة الموازية لظهور الجزائر العثمانية واكتسبت بفضل الرياس الغنائم وزيادة المداخل إلى جانب ضعف الدول القديمة التي بسطت نفوذها على العالم وأفولها، لتحلّ محلّها دول حديثة لكن مع الأسف عرفت نهضة نوعية حضارية في ظل ظهور قوانين عالمية من صنع الأوروبي نفسه الذي كان بالأمس بالعصر الوسط تائها في ظلام الكنيسة ونزعتها الدينية الضالة ومع بروز شخصيات دينية إصلاحية تغيرت الأمور لتعرف حقائق علمية ومجارية تعبر الحياة، لتكون مسألة الأمور التي لطالما اعتبرت من أهم الموارد للمداخل الجزائر العثمانية.

السبب الرئيسي وراء انحطاط الجزائر العثمانية بعد تراجع غنائمها والتفاف الدول الأوروبية حول مسألة واحدة والتغاضي عن مشاكلهم من أجل هدف واحد هو إزالة هيبة وقدرة الجزائر العثمانية حتى لا تكون الساعد الأيمن لحماية الخلافة العثمانية في الوقت الذي عرفت فيه الخلافة تحالفا مسيحيا ضدّها لاقتلاع آخر معقل للخلافة الإسلامية.

كما يمكن إرجاع هذا التسابق نحو الحصول على الامتيازات لإثراء تجارتهم على حساب الجزائر العثمانية، وأيضا العمل على إضعاف قدرتها سواء البحرية التي أكسبتها

هيمنة الحوض المتوسط وذلك من خلال توريثها في صراعهم الأوروبي الدائر في البحر الأبيض المتوسط. وعندما لم يتم لها الأمر، ووجدت الجزائر العثمانية صامدة واستطاعت بفضل حنكة حكامها عدم التورط في هذا الصراع. غير أن هذا لم يمنع من انتقال الصراع الدائر في الدول الأوروبية تم إلى البحر ليصبح على أراضي الجزائر العثمانية من خلال صراع هذه الدول الامتيازات والحصول على الموارد الاقتصادية لدعم بلدانهم وخاصة في الظروف التي عصفت بالدول الأوروبية من حروب سياسية ودينية.

وهذا الصراع في مجمله لم يكن عسكريا في بادئ الأمر وانحصر في المآمرات والحزرات القائمة بين مبعوثين والقناصل، الذي قام كل طرف بشد الحبل واستغلال ظروف الطرف الثاني للحصول على أكبر قدر من الحظوظ بالفوز بالأسبقية. ومن خلال عملنا لاحظنا التواجد الأوفر لفرنسا لدى البلاط العثماني ما انعكس بالإيجاب لتطأ أراضي الجزائر العثمانية بصفة رسمية رغم تردد وعدم القبول بهذا التواجد من طرف الجزائر العثمانية، وبدافع الصداقة التي جمعتها بالباب العالي أو بالأحرى لدى السلطان العثماني وخاصة الفترة الممتدة في عهد السلطان سليمان القانوني، والذي حافظ خلفه على هذه الصداقة فيما بعده والتي كانت الحجة التي تخبأ وراء فرنسا نواياها كل مرة بالمطالبة باحترام الأسبقية، في الوقت الذي سبقت فيه إنجلترا صراعا داخليا آخرها عن الأحداث الدائرة في العالم ولم يكن تحالف فرنسا مع الدولة العثمانية إلا لإنقاذ نفسها من التحالف البابوي والإسباني ضدها، والدليل على ذلك عدم توارى الفرنسيين عن التحالف والرجوع إلى حضيرة الدول المسيحية ضد العثمانيين بمجرد أن قويت شكوتها استطاعت تحصين نفسها والاستغناء عن الخدمات العثمانية في ظل تغلغل نفوذها داخل الجزائر العثمانية وقد ضحت لنفسها أصدقاء وحلفاء جدد.

لتنتهي على مائدة المفاوضات الأوروبية، وتقسيم أقاليمها على نحو خلق التوازن لكل دولة حتى لا تعلن انقلابها فيما بعد، ومع بروز روسيا كقوة في المنطقة المجاورة للعثمانيين، وظهور حركات قومية هدفها استرداد ما سلب من أراضيها بنزعة دينية وإنجاز مسيحي، لتعلن عدة جبهات تمردا على الخلافة العثمانية، التي عرفت انحطاط داخل القصر من ضعف الشخصية السلطانية، وتمرد الانكشارية، وتعاون ولاء الصدر الأعظم،

عجل من تدهور الدولة وسقوطها. لم تكن الجزائر العثمانية بذلك الضعف فقد كانت مستقلة فعليا منذ قرون عن الدولة الأم، لكن مع تراجع البحرية وخاصة مسألة الأسرى والقرصنة التي نالت الحيز الأكبر من مؤتمر فيينا 1815. ولزوم الجزائر العثمانية بتطبيق المعاهدات الدولية إلى جانب تغلغل النفوذ اليهودي في شدة الحكم عن الطريق الاقتصادي وشراء الذمم، سرع من وتيرة الأحداث، بالمقابل نمو العلوم والتقدم الحربي والنظامي لدى الجيوش الأوروبية في نفس الوقت الذي ظل الجيش الجزائري تقليدي نزيه وأسلحته زاد الطين بلة.

وإن دققنا في الكتابات نرى أن الحضور الإنجليزي سواء الدبلوماسي أو حتى العسكري لم ين له صدى بالمقارنة مع الفرنسي الذي دخل الجزائر العثمانية بامتياز ليصبح الامتلاك وينتهي باحتلال، كان مجرد بستيون فأصبح إقليم مستهدف، في غياب جيش نظامي يدافع عنها بسبب كثرة التمردات على سدة الحكم من طرف القبائل لما لاقته من ثقل الضرائب، والإهمال بالإضافة إلى إبعاد العنصر الكرغلي الذي له الأهمية في الحفاظ على أرضه، وانهلال الجيش الانكشاري الذي طالما كان سبب الانتهاكات والتراجع.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو عليّة عبد الفتاح حسن، ياغي إسماعيل، (1984)، "تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر"، ديوان المطبوعات الجامعية، دار المريح، الرياض.
2. أبي راس الناصر محمد بن أحمد، (2008)، "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، ج2، تح: محمد غنيم، الجزائر.
3. أحمد عبد الرحيم مصطفى، (1993)، "في أصول التاريخ العثماني"، ط2، القاهرة.
4. أصاف عزتو يوسف بك، (1995)، "تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم إلى الآن"، تق: محمد زينهم عرب، ط1، القاهرة، مطبعة مدبولي.
5. آلتر عزيز سامح، (1989)، "الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية"، تر: محمود علي عامر، بيروت، دار النهضة العربية.
6. أوغلي خليل ساحلي، (2000)، "من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني بحوث ووثائق وقوانين"، إستنبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية.
7. بطريق نوار، (1971)، "التاريخ الأوروبي الحديث عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا"، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
8. بلبوري سيد أحمد، (1988)، "طرد اليهود وآثاره الاقتصادية والسياسية"، دفاتر التاريخ المغربية، ع2، الجزائر.
9. بلحميسي مولاي، (1979)، "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
10. بلقاسم نايت بلقاسم، (1985)، "شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830"، ط1، الجزائر، دار البعث.
11. بليل رحمونة، (2002)، "العلاقات التجارية للإيالة الجزائر مع بعض موانئ البحر الأبيض المتوسط مرسيليا وليفورن 1700-1827"، وهران.

12. بليل رحمونة، (2011)، "القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية"، الجزائر، وهران.
13. بن حموش مصطفى، (2000)، "فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني"، ط1، دبي، دار البحوث الإسلامية وإحياء التراث.
14. بن عمارة زهرة، (2011)، "الشيخ إبراهيم التازي ومآثره بوهان"، مجلة عصور، ع17، وهران.
15. بن غريبة فلة، (2011)، "المنظومة الاتصالية في مرحلة الدعوة المحمدية أساس الفضاء العمومي، الاتصال الإسلامي"، وهران، مجلة عصور، ع14.
16. بوباية عبد القادر، (2005)، "مكانة تاريخ الأندلس في الدراسات العليا بالجامعات الجزائرية"، مجلة عصور، ع6، 7، وهران.
17. بوحوش عمار، (1997)، "التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962"، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
18. بودغدغ جمال، (2008)، "دور الاستخبارات الفرنسية في احتلال المدن الجزائرية 1830-1844"، قسنطينة.
19. بوعزيز يحيى، (1995)، "أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة"، ج1، بيروت، دار الغرب.
20. بيضون جميل، (1991)، "تاريخ العرب الحديث"، ط1، الأردن، دار الأمل للنشر والتوزيع.
21. التلمساني ابن رقية محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني، (1967)، "الزهرة الثائرة فيما جرى حين أغارت عليها جنود الكفرة"، مجلة التاريخ وحضارة المغرب، ع3.
22. الجمل شوقي عطا الله، (1971)، "المغرب العربي الكبير في العصر الحديث"، القاهرة.
23. الجمل شوقي، إبراهيم عبد الرزاق، (2000)، "تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة"، مصر.

24. حليم إبراهيم بك، (1988)، "تاريخ الدولة العثمانية العلية التحفة الحليمة في تاريخ الدولة العلية"، ط1، مؤسسة الكتاب.
25. حمداني عباس، (2007)، "رد العثمانيين على اكتشاف أمريكا والطريق الجديد إلى الهند"، ع7، مجلة القسطاس.
26. دادة محمد، (1985)، "اليهود في الجزائر في العهد العثماني منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى 1830، دمشق، مكتبة الخنساء.
27. دراج محمد، (2010)، "تأسيس إيالة الجزائر"، مجلة عصور، ع16، وهران.
28. دراج محمد، (2011)، "مذكرات خير الدين"، ط1، الجزائر، شركة الأصالة للنشر.
29. الدغيم محمد السيد، (1994)، "تاريخ البحرية العثمانية في نهاية عهد الخليفة العثماني سليم الثاني بن سليمان القانوني 1574"، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة.
30. دوفال آلبر، (1972)، "ريس حميدو"، تر: محمد العربي الزويري، الجزائر.
31. دولينا اسكندر فنا، (1999)، "الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر"، تر: محمد إبراهيم، القاهرة.
32. راشد عصمت، (1985)، "تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر"، ج1، القاهرة، دار الفكر العربي.
33. الراشدي م.ع.س.أ، (1973)، "الشجر الجمانى في ابتسام الشجر الوهراني"، تح: المهدي بوعبدلي، قسنطينة.
34. زعتوت فتحي، (2011)، "العثمانيون ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس منذ سقوط غرناطة حتى الخروج النهائي"، ط1، بيروت، الأندلس الجديدة.
35. الزهار شريف، (1974)، "مذكرات أحمد الزهار عقب أشرف الجزائر"، تق: أحمد توفيق المدني، الجزائر.
36. الزويري العربي، (1980)، "التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792-1830"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

37. سبنسر وليام، (1980)، "الجزائر في عهد الرياس البحر"، تق: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
38. سعد الله أبو قاسم، (1984)، "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال"، ط3، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
39. سنو عبد الرؤوف، (1985)، "العلاقات الروسية العثمانية 1687-1818"، مجلة تاريخ العرب والعالم، ع77، 78، بيروت.
40. سي يوسف محمد، (1988)، "فلج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية"، جامعة الجزائر.
41. سيد أشرف صالح، (2009)، "أصول التاريخ الأوروبي الحديث"، قطر، دار النشر الرقمي.
42. سيدهم، (2009)، "مكانة التصوف في الحياة الاجتماعية والسياسية في العهد العثماني"، مجلة المغاربية، ع1، الدراسات التاريخية والاجتماعية.
43. شالير وليام، (1982)، "مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824"، تق: إسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
44. شتا أحمد عبد الونس، (1996)، "الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام ووقت السلم، دراسة في تحليل أهم الأدوات العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية"، القاهرة.
45. الشناوي محمد، (1980)، "الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها"، القاهرة.
46. شويتام أرزقي، (2009)، "المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني 1519، 1830"، الجزائر، دار الكتاب العربي.
47. شويتام أرزقي، (2010)، "دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية (1519-1830)"، الجزائر، دار الكتاب العربي.
48. الصباغ ليلي، (1989)، "الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر"، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

49. عباد صالح، (2007)، "الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830"، ط2، دار هومة، الجزائر.
50. العبيدي علي، (2011)، "الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر 1541 وأثرها على توازن القوى في غرب المتوسط"، وهران، مجلة عصور، ع17.
51. العربي إسماعيل، (1978)، "العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة الأمريكية 1776-1816"، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
52. العزاوي قيس جواد، (2003)، "الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط"، ط2، بيروت.
53. عسلى بسام، (1980)، "خير الدين بربروس والجهاد في البحر 1470-1847"، ط1، بيروت، دار النفائس.
54. علي أحمد سالم، (2011)، "العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن السادس عشر"، ع13، دورية كان التاريخية.
55. عمر عبد العزيز، (2000)، "تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر 1815-1919"، إسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
56. عميراوي حميدة، (2009)، "الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني"، مذكرات تيدينا، الجزائر.
57. العيكل صالح، (2006)، "الوجه الآخر للنهضة الأوروبية، محاضرات في تاريخ أوروبا في عصر النهضة 1413-1781"، ط1، بيروت، الوراق للنشر والتوزيع.
58. الغساني محمد عبد الوهاب، (2005)، "سفير مغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر، رحلة الوزير في افتكاك أسير"، تح: عبد الرحيم شحادة، طوكيو.
59. فارس محمد خير، (1979)، "تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي"، ط1، دمشق.

60. فكاير عبد القادر، (2012)، "الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره 1505-1772"، الجزائر، دار هومة.
61. الفوز سعود، (1997)، "المراسلات المبادلة بين الشريف حسن والعثمانيين 1908-1918"، الأردن، دار المكتبة الوطنية.
62. قنان جمال، (1987)، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
63. القيرواني، (1286)، "كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس"، ط1، مطبعة التونسية بمحاضراتها الملحمية.
64. كارتكارت، (1982)، "مذكرات أسير الداوي قنصل أمريكا في المغرب العربي"، تر: إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات.
65. كروزيه موريس، (1994)، "تاريخ الحضارات القوانين 16-17"، تأليف: مونسه رولان، ط3، مجلد 4، تر: يوسف أسعد داغر، بيروت، منشورات عويدات.
66. كوران أرجمنت، (1970)، "السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر"، تر: عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية.
67. ماتيران رويين، (1989)، "تاريخ الدولة العثمانية"، تر: بشير السباعي، ج1، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.
68. مارمول كرفجال، (1984)، "إفريقيا"، ج1، تر: محمد حجي، مطبعة المعارف الجديدة، المغرب.
69. المحامي محمد فريد بك، (1988)، "تاريخ الدولة العلية العثمانية"، تح: إحسان حقي، بيروت، دار النفائس.
70. محرز أمين، (2011)، "الجزائر في عهد الآغوات 1659-1671"، الجزائر، دار البصائر.
71. المدني أحمد توفيق، (1976)، "حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792"، ط2، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
72. معمر الهادي، القرقوطي محمد، (2005)، "جهاد الموحدين في بلاد الأندلس"، الجزائر، دار هومة.

73. مؤلف مجهول، (1984)، "غزوات خير الدين عروج"، تع: نور الدين عبد القادر، الجزائر.
74. الملي مبارك محمد الهلالي، (1964)، "تاريخ الجزائر القديم والحديث"، ج3، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية.
75. النجار عبد المجيد، (1923)، "المهدي بن تومرت"، ط1، بيروت، دار الغرب.
76. نعنعي عبد المجيد، (1981)، "أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة 1453-1848"، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
77. نوار عبد العزيز سليمان، (1966)، "تاريخ الشعوب الإسلامية"، القاهرة، دار الفكر العربي.
78. الوديعاني بن دبلان، (1997)، "الفتح العثماني لجزيرة رودوس 929-1523"، مكة، مكتبة البحوث للدراسات الإسلامية.
79. وولف جون، (1986)، "الجزائر وأوروبا 1500-1830"، تر: أبو قاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
80. ياغي إسماعيل أحمد، (1996)، "الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث"، ط1، الرياض، مكتبة عبات.
81. يحي جلال، (1981)، "أوروبا في العصور الحديثة"، إسكندرية، الهيئة المصرية للكتاب.
82. يحي جلال، (1999)، "التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى"، ج2، إسكندرية.
83. يحي جلال، (1999)، "تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر"، الإسكندرية، المركب الجامعي الحديث.

المصادر والمراجع بالأجنبية:

1. Angel, M, (2009), *les Moriscos en elMundo Mediteraneo de les Sighes XVI y XVII*, Cartas de la Goleta, imp, Bousaa, Tunes.
2. Bardoux, J, (1924), *la Vie d'un Consul auprès de la Régence d'Alger*, RA.
3. Benguettaf A.H, (2010), *The Barbary treaties between the USA and Algeria (1785-1816)*, N16, Revue Oussen, Oran.
4. Berbrugger et Bressier, (1869), *Première Proclamation Achesse par les Français aux Algeriens 1830*, V06, RA, Alger.
5. Berbrugger, (1858), *Un Chérif Kabyl en 1804*, V3, RA.
6. Berbrugger, A, (1860), *le Pégnon d'Alger ou les Origines de Gouvernement Turc en Algérie*, Alger, Challaned Librairie.
7. Berbrugger, A, (1875), *la Régence d'Alger sous le Consulat et l'Empire Correspondance de Napoléon I^{er}*, T3, VA9, RA.
8. Bianchir, (1877), *Relation de l'Arrivée dans la Rade d'Alger du Vaisseau de la Provence sous les Ordres de M. le Conte de Bretonnière*, V21, RA.
9. Boyer, (1966), *Construction à l'Étude de la Politique Religieux des Turcs dans la Régence d'Alger XVI XIV*, Revue de l'occident Musulmane et la Méditerranée, N1.
10. Boyer, (1973), *la Révolution Dite des Aghas dans la Régence d'Alger 1659-1667*, Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, N13.
11. Card, E. R, (1906), *Traité de la France avec les Pays de l'Afrique du Nord Algérie Tunisie*, Tripolie, Maroc, Paris, A. Pédone, Ed.
12. Carrette, E, (1853), *Origine et Migrations des Principales Tribus de l'Algérie*, Paris.
13. Cat, E, (1889), *Histoire de l'Algérie Tunisie, Maroc, et Jourdan*, Alger.

14. Comestaggio, J, (1882), *Relation des Préparatif fait pour Surprendre Alger*, trad H.D. de Grammont, Alger.
15. Dan, P, (1646), *Histoire de Barbarie et de Corsaires des Royaumes des Villes d'Alger de Tunis*, de Salé, de Fripeli, Paris.
16. Defontain. M., (1830), *Alger avant la Conquête eux Ali Corsaire Barbaresque Beylier Bey d'Afrique et Grand Amiral*, ed Pedon, Paris.
17. Delef, T, (1967), *Saint Vincent et Paule et la Barbarie en 1657-1658*, Revue de l'Occident Musulman et de Méditerranée, N3.
18. Develeux. A. (1852), *Tachrifat Recueil de Mots Historiques sur l'Administration de l'Ancienne Régence d'Alger*, Alger.
19. Develeux, A, (1853), *Archive du Consulat de France*, Alger, N11, Bastide, Alger.
20. Develeux A., (1869), *la Marine de la Régence d'Alger*, RA, N77, Paris.
21. Develeux, A, (1871), *M.J.B. Germain Chancelier Consulat de France*, N15, RA.
22. Develeux, A, (1872), *Relevé des Principaux Français qu'ont Résidé à Alger de 1686-1830*, RA.
23. Deleveux, A, (1872), *un Incident Diplomatique a Alger*, RA.
24. Delpech. A. (1874), *le Soulèvement des Derkaoua de la Province d'Oran*, p38-58, 1800-1813, V18, RA.
25. Eisenbeth, M., (1952), *les Juifs d'Afrique et en Tunisie à l'Époque Turque 1516-1830*, RA.
26. Erest. F., (1982), *Description et Iconographie de la Ville d'Alger au XVI siècle*, Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée.
27. Feraud. Ch. (1876), *Histoire de Philipe Ville Collo*, V20, RA.
28. Feraud. Ch. (1877), *Causes de l'Abodon sur Comptoir de Collo par la Compagnie Française 1795*, V22, RA.

29. Feraud, Ch, (1887), *Histoire des Villes de la Province de la Constantine de la Calle*, Alger.
30. Feraud. Ch. (1972), *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, Newyork.
31. Garrot, H, (1910), *Histoire Générale de l'Algérie*, ed Croscenzo, Alger.
32. Godard, A. L. (1857), *Soirées Algériennes Corsaires, Esclave et Martyrs de Barbarie*, Tours.
33. Godfrey, F, (2000), *Légende Barbaresque Guerre Commerce et Piraterie en Afrique du Nord 1415-1830*, trad Farida Hellal, Alger.
34. Goffman, D, (2004), *the Othman Empire and Early Modern Europe*, Newyork.
35. Grammont, (1887), *Histoire d'Alger sous Domination Turque 1515-1830*, Paris, Ernest Leroux.
36. Grammont, H. G., (1879), *Relation entre la France et la Régence d'Alger au XVII Siècle*, Alger.
37. Grammont, H. D. (1890), *Correspondance des Consulats d'Alger 1690-1742*, Alger.
38. Grandchaup, P, (1985), *la Baise Main des Consul à la Cour de Tunis*, RA.
39. Haëdo, F. D., (1870), *Topographie et Histoire Générale d'Alger*, Trad, Monereau et Berbrugger, imp, Valladolid.
40. Haëdo, D. F. D, (1881), *Rois d'Alger*, trad : H.D. Grammont, Alger.
41. Julien, A, (1919), *Marseille et la Question d'Alger à la Veille de la Conquête*, RA.
42. Labat, J. B, (2003), *Mémoires du Chevalier d'Azvieux Envoyé Extraordinaire du roi à la Parte*, T5, Paris.
43. Lespes, R, (1938), *Étude de Géographie et l'Histoire Urbaine*, Alger.

44. Lucrative, R, (1914), *Histoire de l'Afrique du Nord avant 1830*, ed : Gojossio, Alger.
45. Masson, P, (1896), *Histoire des Établissements de Commerces Français dans l'Afrique Barbaresques 1560-1793*, Hachette, Paris.
46. Mauroi, A, (1937), *Histoire d'Angleterre*, Librairie Azthène Fayad, Paris.
47. Mercier, E, (1868), *Histoire de l'Afrique Septentrionale (Barbarie) depuis le Temps Reculé jusqu'à la Conquête Française 1830*, T1, Paris.
48. Merouche. L. (2002), *Recherche sur l'Algérie à l'Époque Ottomane Momaies*, prix et de revenus 1520-1830, ed. Bouchene, Paris.
49. Morgan, J, (1979), *A Complete History of Algiers*, London.
50. Nettement, A, (1867), *Histoire de la Conquête d'Alger*, Librairie Jaques Lecoffre.
51. Paradi. J. M, (1983), *Tunis et Alger au XVIII*, Paris, SS. B. arabe Sindbad.
52. Paradis. V. (1898), *Alger ay XVIII Siècle*, ed. Fagman, Paris, Typographie Adolphe Jordan.
53. Pavy, (1857), *la Piraterie Musulmane*, N7, RA.
54. Perret, E, (1902), *les Français en Afrique Récit Algériens 1830-1848*, Paris.
55. Pestemaldjoglou, A, (1942), *le Consulat Français d'Oran 1732-1754*, RA.
56. Piquet, Ch, (1830), *Aperçu Historique Statistique et Topographie sur l'État d'Alger a l'Usage de l'Armée Expéditionnaire d'Afrique*, Ed 2, Paris.
57. Plantet, E, (1889), *Correspondance des Days d'Alger avec la cour de France 1579-1833*, T1, Paris.
58. Playfaire. R. L. (1879), *l'Histoire des relation de la Grande Bretagne avec les états Barbaresques avant la Conquête Française*, v23, RA.
59. Poirret, A, (1980), *Voyage en Barbarie ou Lettres des Barbarie*, ed, Paris.
60. Primaudie, E, (1861), *le Commerce et la Navigation de l'Algérie*, Paris.

61. Primaudaie, E. (1877), *Document inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnol en Afrique 1506-1574*, V2,RA, Alger.
62. Rang, S, (1837), *Fondation de la Régence d'Alger, Histoire des Barberousse expédition de Charle-ouint*, T1, Paris.
63. Rotalier, Ch, (1841), *Histoire d'Alger et de la Piraterie Turcs dans la Méditerranée à dater du 16 Siècle*, T1, Paris.
64. Rousseau, A, (1841), *Chronique de la Régence d'Alger Elzohrat el-Nayerat Mohamed Ibn Muhamed al-Tilimsâne*, imp, Gouvernement, Alger.
65. Rozette et Carrette, (1850), *l'Algérie l'Univers ou Histoire et Description de leurs Peuples de leur Religions*, Moens Coutumes, Paris.
66. Sandoval, (1864), *sur la Reprise d'Oran en 1732 et sur Quelques Autre Fait de l'Histoire des espagnols en Afrique*, RA.
67. Shaw, (1830), *Voyage dans la Régence d'Alger ou Description Géographique Physique de cet État*, Trad : Mac Cartny, Paris.
68. Standford, Sh, (1983), *Histoire de l'Empire Ottoman et de la Turquie*, T1, Ed Horvath, Rouanne.
69. Tassy, L, (1724), *Histoire de Royaume d'Alger*, Henri Sauzet, Amsterdam.
70. Vayssette, E, (1860), *Lettre de Louis XVI a Hassan Pacha*, N4, RA.
71. Veinstein, G, (1989), *l'Empire Ottoman dans sa Grandeur XVI*, Fayad, Paris.
72. Watbled, E, (1945) *Aperçu sur les premiers Consulats Français dans le levant et les État Barbaresque*, RA.
73. Zeghari, L, (2004), *les Captifs d'Alger d'après la Relation de Emanuel d'Aranda Jadis Esclave a Alger XVII*, Casbah ed, Alger.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

شكر وتقدير

مقدمة أ

الفصل الأول: أوضاع حوض المتوسط زمن ظهور القوى العثمانية

- الجزائر قبل دخولها في الولايات العثمانية 06
- حركة التصوف وأهميتها في تطور الفكر الجهادي لدى الجزائريين . 09
- الأوضاع العامة للجزائر عند دخول العثمانيين 11
- الصراع الديني وانعكاسه على مجرى الأحداث 18
- الإمبراطورية الاسبانية في خضم الأحداث الأولية 20
- أوضاع إنجلترا 23
- الدولة العثمانية تتزعم العالم الإسلامي 26
- اصطدام العثمانيون بالصفويين 28
- السياسة الدولية للسلطان سليمان القانوني 29
- خضوع الحجاز للسيادة العثمانية وانعكاسه على دعوة الجزائريين له 33
- علاقة العثمانية بالأسرة السعدية في المغرب 35

الفصل الثاني: التقرب السياسي الفرنسي الإنجليزي من الجزائر العثمانية

- مفهوم العلاقات الدولية 39
- بداية الصراع الدولي في حوض المتوسط 40
- بداية الصراع بين الجزائر العثمانية وممالك أوروبا 41
- بداية العلاقات بين الجزائر العثمانية والدول الأوروبية 42
- معركة ليبانت ومصير البحر المتوسط 44
- جذور العلاقات الجزائرية الفرنسية 46
- مسألة القرصنة والأسرى وانعكاساتها على المشهد السياسي في حوض المتوسط
- 48

- مسألة الأسرى الإنجليز 53
- التقارب الفرنسي الجزائري 54
- النتائج المترتبة عن هذا التقارب السياسي 56
- التقارب الانجليزي العثماني وانعكاساته على الجزائر العثمانية..... 58
- موقف الجزائر العثمانية من منح الباب العالي للامتيازات لإنجلترا.. 60
- مساهمة القناصل في الصراع 61
- القنصليات الأوروبية في الجزائر العثمانية وسبب ظهورها 62
- الصعوبات التي صادفت فرنسا للاستقرار في الجزائر 65
- التجارة الخارجية وعلاقة القنصليات بها 68
- تأثير القنصليات وتأثرها بالأحداث 70

الفصل الثالث: التداعيات العامة للصراع الفرنسي الإنجليزي على الجزائر العثمانية

- العوامل الجاذبة للصراع الفرنسي الانجليزي 78
- أسباب ظهور الصراع بين فرنسا وانجلترا على الجزائر 80
- التواجد الفرنسي..... 81
- مساهمة القناصل في إذكاء التنافس والصراع بين فرنسا وانجلترا ... 82
- أوضاع القناصل بالجزائر 85
- المصالح الشخصية ودورها في هذا الصراع..... 89
- دور القناصل الإنجليز في ثورة ابن الأحرش 92
- طبيعة الصراع وانعكاساته على الأحداث في الجزائر 95
- التأثير على الجانب الاقتصادي 95
- دور اليهود في الأزمات الاقتصادية وتأثيره على الأحداث السياسية 100
- مساهمة اليهود في الاحتكار الاقتصادي 101
- مسألة الديون للتاجر اليهودي وتأثيره في مجرى الأحداث 103
- الضغوط والعقوبات التي تعرض لها القناصل وأبعادها على العلاقات 105

108	- قضية تقبيل اليد للقناصل والتحية بالموانئ
109	- ردود الفعل العسكرية
115	- حصن البستيون
118	- العوامل المشجعة لهذا الصراع
122	- مسألة الأسبقية ودورها في الصراع والمآمرات الفرنسية الإنجليزية ..
127	خاتمة
133	قائمة المصادر والمراجع
146	فهرس الموضوعات

ملخص

تتبع أهمية دراستنا من طبيعة وأهمية الأحداث التي عرفها التاريخ في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، والذي يتزامن مع ظهور العثمانيين في حوض المتوسط لتبنيهم فكرة الجهاد ضد الإسبان وتخليص المسلمين المضطهدين منهم وإيصالهم إلى شواطئ شمال إفريقيا لتتم دعوتهم من طرف العلماء الجزائريين ليتحوّل جهادهم إلى الأراضي الجزائرية ويتم طرد الإسبان على يدهم وإلحاق الجزائر إلى الدولة العثمانية لتصبح الذراع العسكري لها في حوض المتوسط. فهذا التحول تكتسب الجزائر المكانة والقوة في البحر والذي أجبر القوى الأوروبية للتسابق نحوها وإبرام المعاهدات لاكتساب الامتيازات وعليه يظهر الصراع الخارجي نحو الجزائر والذي انحصر في دولتين حديثتين فرنسا وإنجلترا باعتبارهما دولتان قويتان على أنقاض الإمبراطورية الإسبانية التي كانت تهيمن على المنطقة فيما مضى. وتكمن في حقيقة العلاقات الأوروبية التي انعكست على الجزائر باعتبارها إقليم عثماني وظهور القوة التي اكتسبها بعد إلحاقها بالدولة العثمانية ليتحول إلى صراع سياسي عسكري أدخل الجزائر التاريخ من أوسع أبوابه. و عليه كيف تمكّنت كل من فرنسا وبريطانيا من التقرب من الجزائر العثمانية ثم التدخّل في شؤونها شيئاً فشيئاً إلى غاية وقوع الاحتلال ؟

الكلمات المفتاحية:

الصراع الفرنسي الإنجليزي؛ الجزائر العثمانية؛ الإيالة؛ القرن الخامس عشر؛ القناصل؛ الحوض المتوسط؛ اليهود؛ ثورة ابن الأحرش؛ التقارب؛ الإسبان.

نوقشت يوم 16 جويلية 2019